رواية

حرث الأحلام

محمد قطب



الغلاف/ سميرة المرصفى

الإخراج الفني : فاتن رضا

التنفيذ : إدارة الجمع التصويرى

(١)

●● كأنه كان يتلهف على انبلاجة الصباح لتخرجه من نومه المخطوف وأشباحه المرعبة.. لعل الضوء الذى يوشح الأفق يهديه إلى سنبلة تكتنز بالحنطة.. تتماوج على ساقها الذهبى، تخرجه من ألمه النفسى، وتكفه عن الندب الذى يأكل القلب.. فالأيام تتوالى فى مسخ لايتغير، يعكر ماء الحياة، ويصنع قبحا يفترش الدروب والنفوس.

لا أمل فى رزق وفير أو شحيح، ولاطريق ينتهى بخير هذه الأيام.. عود نفسه على الرضا وارتاد معها آفاق السكينة، وهذبها، وقسرها على صدق القول

وإخلاص العمل.. لكن الأبواب موصدة.. تفضى إلى الجحيم.. يدرك أن الدنيا واسعة، وغناها عريض، والخير يفيض على الأجناب والأشداق، ويمرح فى أنهر الطرق البهية سريعا وصادمًا، لكنه يحول ركبه بعيداً، يبتعد فى غل مقصود عن مساكن الإيواء.. عن هؤلاء الذين جمعوهم فى همة، ثم رموا بهم بعيدًا، ونفضوا أيديهم منهم بعد أن طهروها باليزول»

حقا.. من يتذكر الأطراف البعيدة التى تضج بهاموش البشر!!

يسمع كثيرًا عمن تملكوا، وامتلكوا، وابتنوا، وانتهبوا..

•••

أمس اختصه حموهبجلسة حميمة.. لم يفته كدر زوج ابنته، والمعاناة التى يمر بها.. زوجته لم تدخر جهدًا، لكنها قليلة الحيلة، والولد الصغير يكاد يضيع منهما، فالخبز وحده لايكفى..

- اسمع منى ياولدى.

وراح يقص عليه مافعله الغراب ليشرب، ورنا إليه عل نفسه تصفو ويزول الضيق.

- ظل يرمى بالحصى حتى علا الماء فشرب.

ناوله الشاى الأسود، وراح يضغط على مبسم الشيشة فى تأن.

- لو يئس الغراب لمات عطشًا

احتسى الشاى فى رشفات ممطوطة.. يرمق الرجل فى تلذذه وهو يسحب الدخان، ويحبسه، ثم يرسله موجات متتابعة.. ضغط على فخذه

- أنت ياولدى طيب.. تكره الحرام.

ركن كوب الشاى واتكأ على كوعه.. تابع فراشة تهيم فى فضاء الغرفة.

- والحلال!! يعوق الرزق!!

كح الرجل كحة ناشفة فارتج الجسد النحيل

- سكة الحرام مفتوحة.. وتغرى ياولدى.

ذهنه مشغول بغده: أتى الجفاف على ماادخره. يخجل كلما عادت زوجته محملة من أبيها.. بالخبز

والجبن والعسل الأسود، معاشه من خدمة المسجد يكفيه بالكاد.. لكن الحفيد عينه التى يرى بها.

●●●

حين لمحه الخضراوى يسير مبطئا بمحاذاة المصرف العطن، أدرك أنه مهموم، وعاطل، يمر عليه الوقت حادا ومملا كشفرة سكين.. ناداه، واحتضنه. أخذه تحت إبطه وخاضا دربا ملتويا.. بدا النبات يعافر، ويستدعى نموه، والدجاجات تقأقئ فوق تلال القمامة، على حين راحت الماعز تقفز وتتناطح.

- باختصار أمامى فرصة لن تتكرر.

يعلم من هو الخضراوى.. ويتعجب كيف تغفل عنه الشرطة!

ولزم الصمت.

- محل قطع الغيار على ناصية المصرف من الشمال.

رنا إليه ولم ينطق.. لم يقاوم وهو يتداخل تحت ذراع الرجل.

- مطلوب منك عمل فتحة فى الجدار الخلفى أو فى صبة السقف.. تلك مهنتك فلا تخذلنى.

لم يخدعه الحنان الزائف فنطق فى تساؤل

- محل من!

قذفها بسرعة وانتظر الجواب

- النمس

خلع نفسه ورمقه فى تأن، وهو يربت على صدره

- اعتبرنى ماسمعت..

ليست السرقة مهنتى

- أنت تعلم أنه جمعها من السرقة والنصب..

ابتسم واستدار عائدًا..

●●●

اصطاد النظرة الشاردة، والتنهيدة العميقة، وخيل إليه أن ذهنه يخاتله، نهض وارتوى من القلة الفخار، ناوله فشرب..

- لاتكن كالنمس

انتبه، وسدد نظرته إلى حميه وهو يطوى فخذه ويمد ساقه.

ـ ضاقت به الدنيا ولم يصبر ـ تاجر فى العرض والمخدر، وارتشى.

ـ النمس بك

ـ ماذا تظن؟.. من أين جاء بمعرض السيارات.. كانت أمه بائعة خضراوات فى نصبة السوق وأبوه سقاء قديم.

لم يستطع النوم

منذ ترك حماه وصورة النمس المتخيلة تملأ سماء الغرفة، وتزاحمه فى نومه.. المتقطع.. جاهد حتى اختلس الكرى خفية..

رأى نفسه يخوض فى ماء، وكلما أوغل، تعكر حتى بدا كالطين المذاب..

أقدامه غائصة فى الطين اللزج..

مسته رفسة من رجل الولد الصغير فنتر نفسه شاهقا، يمد يده ليمسك بيد حميه.. ينتشله من الطين والحفر..

●●●

خرج قبل أن تنهض امرأته.. ألقى نظرة على ولده.. ومضى.. أكمل ارتداء القميص وهو يستقبل البراح.. قطع جسر المصرف ومال فى اتجاه الشرق.. لم تكن الشمس قد بزغت فبدا الأفق واقعا تحت ضباب كأنه غمامة شهباء.

هرول فى اتجاه المدق الترابى، ثم اعتلى رابية، وانحدر حتى واجه الطريق.. وركب العربة إلى السوق، فمنذ أن قلت حركة البناء، وطال الكساد المعمار، وهو يرتاد الأسواق.. يقوم بالعمل الذى يطلب منه، أيا كان العمل.. حتى أضحى وجهه مألوفًا، وأشاع تصديه لابن شلباية المعروف بشراسته ارتياحًا، فدخلت محبته إلى قلوب صغار الباعة.

ولج السوق وهو يفتح أبوابه، ويتهيأ لاستقبال البضائع والبشر، تقف العربات الكارو، ونصف النقل، وحولها صبيان يتأهبون والباعة «السريحة» ينتظرون الأنصبة.

لمحته فأشارت إليه، أفهمته أن المكان لايصلح وعليه أن ينتبه إلى القفصين، وألا تمتد يد إلى الفراخ..

وأنها لن تتأخر، وجذبت طرف ثوبها وأسرعت، راح يرنو إلى المكان الذى امتلأ بالناس، وداهمت أنفه رائحة الطعمية الطازجة فخطا، واقترب.

لاحت أقراص الطعمية مفروشة بجذاذات البقدونس، وأرغفة الخبز البلدى على طاولة من الجريد والبصل الأخضر والجرجير وعيدان البقدونس مرصوصة على طبق مصنوع من سعف النخيل.

ما أن رآه البائع حتى استبشر خيرًا، فهو صباحه الأول.. فتح الرغيف وملأه بالطعمية الساخنة، ودس فيه ليمونة مالحة، وأوراق الجرجير الخضراء، ولفه فى ورق اللحمة ودفع به إليه وأبى أن يتقاضى ثمنه.

عادت المرأة وطلبت معاونتها فى اختيار مكان آخر، فمنذ جاءت لم تبع كتكوتًا واحدًا.. حين رأت اللفة فى يده انحنت على القفص وشمرت جلبابها فدس الطعام فى جيبه، وأزاحها بخفة. حملهما فوق كتفه ومضى تسبقه المرأة فى هرولة متعجلة وعند ساحة الغلال أشارت فأنزل حمله.

●●●

عود نفسه على الصبر وحسن الحديث، واتسم بالحصافة، والوداعة وأقبل على من يحادثونه فى بشاشة، تغوص عيناه فى شفاههم كأنه ينتظر حكمة يلتقطها يتدثر بها ويختزنها.

عاش فى الغربة عامًا وحين عاد لم يجد البيت ولا الأم، أخذهما زلزال فيما أخذ. عاتب سكان الجوار فواجهوه فى غضب.

ـ لم نعرف لك عنوانا

كتم فرحته، وكوم هداياه وأسلمهما لصندوق محكم.

●●●

جاءه ليلاً، وأسر إليه أمرًا. ظل قلقا أيامًا طويلة ثم وافق.. جهز أوراقه وانتظر موعد السفر.. حين تقرر الرحيل وقف أمام أمه يخبرها بما عزم عليه.

لزمت الصمت، وأخرستها المفاجأة، واغرورقت عيناها، وتمتمت فى صوت مهيض

ـ كده تهرب ياسيد وتسبنى!

واحتواه حزن حقيقى سرعان ماكتمه، وظل يسائل نفسه: كيف يهرب.. واغترابه سكين يحز رقبته.. من

أجلها يغترب.. غربته فى الوطن سترت أخته فلعله فى سفرته هذه يبلل الجفاف. ويحقق له استقرارًا..

أخذه حلمه كما أخذ غيره. وراح يحلم بفيض المال، ويبنى - فى الخيال - الأمانى التى راودته، فى مسكن جميل، ومكتب صغير للبناء، وزوجة ترعاه وتكون له غطاء، أما الأم ففى القلب.. رعاية ومحبة.

مضى إلى البلد الخليجى وزهوة الأحلام تطير به وتسكره.. فى المطار أخذه الكفيل من يده وأركبه السيارة وذهب به إلى بيت ناء عن العمران.. كان البيت محاطًا بسور مدبب ذكّره بأسوار البيوت التى إنهارت وانتهكت أعمدتها..

وقبضت عليه غصة الجمته. أهذا موطن الحلم المرتجى!

كان مكيف السيارة يرسل زخات من الهواء البارد، واندهش سيد والرجل - بلحيته الكثيفة وشماخه المسدل وسواكه الذى لايكف عن دعك الفم - يطلب منه أن يسلمه جواز سفره.

- لكنه جواز سفرى الخاص

ـ وأنا كفيلك

حين طال تردده حسم الكفيل الموقف

ـ جواز السفر معى.. هاته.. هذا قانون

وقع فى القبضة التى لاترحم، لايعرف أكثر من اسم الكفيل، والمدينة التى هبط فيها. وهاهو يبدأ الخطوة الأولى فى الاستحواذ ويطالب بالجواز.. أمال رأسه قليلا، وتأمل الفراغ الأصفر وذؤابات الصبار الحادة، وشمله هدوء يقترب من الموات.. وتساءل فى ذهول: هل يسعفه الجواز فى اصطياد الأحلام لوظل معه؟.. لن يستخدمه أحد غيرى، وما الجدوى منه إذا كان الجسم نفسه مقبوضًا عليه؟.. فقط عليه أن يتنبه للهدف الذى جاء من أجله ويسعى لصنع ثقب صغير تنفذ منه شمس الحياة.

دس الرجل جواز السفر فى صندوق السيارة ونزل.

طرق الباب فانفتح وأطل منه وجه غامق اللون، منكوش الشعر، وجه إليه الحديث فى تبلد واضح

ـ خذه وفهمه كيف يعمل!

وانطلق بسيارته عائدًا.

لم تتح له فرصة أن يستفسر عن شىء، أحس بوخزة فى صدره كسيخ حديد محمى يسوخ فى اللحم، وضع يده على صدره وكتم آهته ودخل. واجهه البراح الواسع، وعدد من الأسرة ذوات العمدان الطويلة.. دار به فى المكان فلمح حجرات صغيرة على الجانبين، بها سرر وكلآت بيضاء مسدلة..

مشى أمامه فى بطء، حتى وصل إلى باب غرفة جانبية ودفعه بقدمه، كان الفراغ معتما فلم ير شيئًا، ثم استبان له الأمر حين تسرب الضوء من النافذة، وتعودت عيناه على العتمة المضببة. أشار إلى سرير فى الركن وقال: -

ـ هذا سريرك.

وضحك فى ضجة، وأشعل سيجارة

ـ فراش وثير تستحقه

وتابع بعد أن دفع من فمه بسحابات شهباء

ـ فى الصيف نخرج به إلى البراح..

أخبره عن اسمه، وبلده، وموطن السكن

- ضع أغراضك هنا، وتعال نشرب الشاهى

سأل عن الكفيل، وعمن يسكن البيت الذى يشبه بيوت.. المقابر.

أدار ظهره وهو يردد:

- سنتحدث ونحن نتشاهى..

جلس على كرسى واطئ وراح يشرب الشاى الأصفر الباهت، لمح فجأة عقربا أسود يطل من شق أسفل الجدار، هب خائفًا وجرى ورمى بنفسه على السرير.. ضج زميله بالضحك..

- العقارب، والسحالى، وأم أربعة وأربعين والناموس شىء عادى..

وقال فى غيظ - أبو الريش مليان.. ياعم سيد

وعاد يجلس يتابع رشف الشاى

- لاتنس أن تضع تحت قوائم السرير فوارغ الكولا الصفيح وتملأها بالماء.

أشعل السيجارة وتساءل فى تردد.

ـ تركنى دون أن يدلنى على العمل.

ـ لاعمل محدد..

ـ كيف؟

خرجت من فمه كقذيفة مارقة.

ابتسم له، وصب الشاى، وأشعل سيجارة وقدم له حبات من التمر وقال:

ـ هنا .. أنت حر، اعمل ما يطلب منك، وتاجر فى كل شىء، وامتهن ماتحب، حرك نفسك، وانتهز أية فرصة.. فقط عليك أن تدبر راتب الكفيل الشهرى.

توقف عن الرشف، وأمعن النظر

ـ أعطيه راتبه!!

ـ نعم.. نظير كفالته، وعدم تضييقه عليك..

خلع جلبابه، وشعر بقلبه يتقلص ويلتوى عليه

ـ يؤجرنى..

ـ لايتدخل فى شئونك، ولافيما تحصل عليه من مال.. لايبغى سوى المبلغ الذى حدده..

- وإن رفضت

دقق النظر فيه. ونصحه قائلاً:

- ستموت من الجوع، أو يرميك فى السجن..

مثلما يفعلون.. افعل..

وكتم الآهة الحادة.. وأدرك أنه فى محنة وعليه أن يواجهها ويعود. وراح يجرى وراء المال.. يمتهن كل المهن حتى يفى براتب الكفيل، ولم يعد يهمه أن يدخر شيئًا يستره - ويعود به إلى أمه.. وعجز عن مناوشة حلمه، فلم يجمع المال، ولم يهنأ البال، ولم يحقق الأمل.. لكن يكفيه أن يعود.. فأمه تنتظره، وتعد الأيام لرؤيته.

●●●

... ترك أبوه الدنيا فى عجلة.

وحمل هم الأسرة مبكرا، وشاهد الحى العتيق مكابداته من أجل أمه وأخته، عجزت الأم عن الحركة. سرح الروماتيزم فى عظامها، وأيبس مفاصلها.. وبكت فى عويل حين أخبرها أنه سيترك المدرسة ويتجه إلى

العمل.. صمتت وناب سوء الحال عن الحديث.. ولم يجد أمامه سوى العم «مجيد»

قال له فى حنو حقيقى

ـ لكنك لازلت صغيرًا ياولدى

أمال رأسه وأخفض عينيه

ـ الصغير يكبر ياعمى

مد يده ورفع رأسه فلاحت عيناه مبلولتان.. ربت على كتفه

ـ على بركة الله..

واتاه الحظ فعرف كيف يطيع ولى النعم حتى أدرك سر البناء.

حمل وهو صغير عبئًا ثقيلا بموت الأب، وعافر فى دنياه حتى ستر أخته وزوجها

●●●

لوح له تاجر الغلال فلبى. نقل أجولة القمح إلى عربة نصف نقل، أثناء عمله لم ينطق بحرف واحد، مجرد إشارة تكفيه، وشعر بإعياء شديد، وأحس بأن

جلده مسلوخ، وأضحت أية حركة تسبب له ألما..
اعتذر عن تحميل عربة أخرى وطلب الراحة، اتجه إلى
نصبة «الصعيدى» وطلب شايا.. أخرج اللفة وشرع
يأكل، كان جائعًا ولم يفلح الرغيف فى إشباعه.

رشف الشاى فى تلذذ بطىء وشملته راحة بدنية
حقيقية. أغمض عينيه فتراءى الولد مجسدًا، واختالت
امرأته فى جمال وفاحت رائحة مياه الحموم حتى
فاضت حوله.. تمنى أن يحالفه الحظ فيشترى لها
الشبشب وللولد لوح الاردواز والطباشير الملون.

وانقبض صدره، وتساءل: متى ينعم الله عليه
بمسكن آخر؟! وتراءى له وجه معلمه..

●●●

ضاقت به الدنيا وشعر بوحدة قاسية.. كانت أمه مع
مرضها ملاذا يأتنس به. لكنها رحلت.. وكتم فرحته
حين عاد، وخاف على نفسه أن تضل. كادت الأبواب
أن توصد إلى أن رآه معلمه جالسًا يشرب الشاى
ويدخن.

نهض فى همة لما رآه يقترب. باحت الحركة باحترام حقيقى.. سعد الرجل وجلس.

نظر إليه متأملا: ـ

ـ هل دبرت السكن؟

وشت العين بهمّ ثقيل فلزم الصمت

ـ حصل المتضررون على غرف بديلة

خرج صوته مسحوقا

ـ سمعت.. لكن كيف؟

ـ فى الإيواء.

أطفأ السيجارة قبل أن تكتمل

ـ امتلأت

أخرج المعلم من حافظته كرتا باسمه، حين تناوله ابتسم وقبله

ـ اذهب إليه فمكانته فى الحى معروفة..

سيدبر لك غرفة

حين وطأت قدماه سلالم الإيواء انقبض صدره..

وظل يحادث نفسه.. كيف يحيا فى مكان مفتوح لا أسرار فيه لأحد ولا خفايا تحتجب.

وحين رآها أعجبته

عقد عليها، ونقلها إلى حجرته، وسرعان ماتكورت بطنها وأنجبت - وظل يحلم بمسكن يصون له كرامته ويحفظ حرمته حتى كبر الولد.

●●●

أرعبه صوت الأنين بترجيعاته الحزينة، فتوقف فجأة فى حنية السلالم. زاحمه رعب حقيقى يأتى من أسفل.. كانت الآهة.. تخترق الروح وترعشها. لم يحس بمثله إلا لحظة عودته من الغربة ووقوفه على طلل البيت القديم الذى أطاح بأمه.. شعر أن الصوت الناعب يفلت من الركام، والردم، والتراب ويولول، ويحتد فى وجهه ويدينه، ويذكره بالصوت، بنبراته التى اتخذت لون الدم القانى: كده تهرب ياسيد وتسيبنى!!

ماتت، قبل أن تدرك العذاب الذى لقيه، والهوان الذى تحمله.. وتمتم فى ألم حقيقى: لكل أجل كتاب.. ليرحمها الله.

توالى الصوت، وتعجب ألا يستيقظ أحد لنجدتها.

ربما لأنه جديد على المكان، وربما لأنهم تعودوا ترجيع الأنين، وتوالد الألم، الصوت يعطى الشعور بالحسرة وهو يتمدد بطول النفس حتى يتلاشى.

المرأة تحتاج إلى معين، كيف يتصرف وهو الجديد على المكان يتحسس الخطو ويتلمس العلاقات فى حذر.. يجب ألا يغامر، كفاه معاناة ومخادعة.

ما الذى جعله فى الهزيع الأخير من الليل يهجر فراشه وينزل، كان من الممكن أن يتحمل الحلم القابض على الصدر، ووجه الأم المناوش حتى الصباح، لكن وحدته التى طالت استدعت الوجوه المحبوبة، تطوف سماء الغرفة.. ملأت الفراغ وشغلت المساحة، وحرمته من النوم، لماذا يزاحمه وجه الأم الداكن ووشاحها المطرز بالخرز.. حدس أنها قلقة، وأنها جاءت لتؤنسه، أو تذكره..

فضل أن ينزل إلى الجامع، يصلى الفجر، ويدعولها بالمغفرة، ويختلس الكرى مستندا إلى المنبر حتى انبلاج الصباح.

فعلها ونزل. هرب من وجه الأم المزاحم ليواجه

الأنين المرعب لامرأة لاتجد أحداً يسعفها.. قد تكون مريضة.. من يدرى! ولعل الوحدة تأكلها وتسلخ جلدها. هل تواجه ماواجهه من غربة؟ وكيف تغترب والأهل حولها؟..

عليه أن يلبى. لن يواجه أقسى مما واجه فى حياته.

واتته الشجاعة وعزيف الليل كأنه صوت الجان يبعث على الخوف.. وتعجب من الغرف التى لاتكف عن الصخب وقد خلت من الحركة وضنت بالمودة.. ونزل.. كانت القدم تتحسس خطوها وتؤازرها اليد القابضة على سور السلالم..

لايخاف كثيراً من هذه المواقف لكنه يخشى أن يكون بها مسّ..

فى بسطة السلم الأخيرة وصله الصوت، تكاد نبراته توقف شعر رأسه، ما كل هذا الحزن!!

كده تسيبونى لوحدى..

وتسمرت قدماه. أيكون وجه أمه يخادعه!

إنها العبارة التى واجهته أمه بها.. التوى قلبه،

وتمنى أن تتفهم الموقف.. فهو لم يهرب كما رأت أمه.. وندت عيناه بالدمع - فجأة - كان يتمنى لو صحح الأمر لأمه. لكنها هربت منه فجأة وماتت.

دفع الباب الموارب ودخل

وكأنها كانت تنتظره فأسرعت تقول

- النقرس هدني.. آه.

مابال كل شيء يخاصمه.. ترى هل تعود أمه بأوجاعها أيضًا!!

أخفت وجهها بين يديها ولاح التقلص يقبض على أعضائها فاقترب.

- عندك دواء؟.

- الداء أقوى

ونظرت إليه

ظلت ترمقه فى حنو بادٍ، والماء ينبت من العين ويتجمع ثم ينهل كالقطر.

- الداء هنا

وأشارت إلى القلب، وظل صامتًا، يجذبه إليها هذا الوجه الداكن المتألم.

- الوحدة تقتلنى

مسحت دمعة نافرة ورمقته

- ربينا وكبرنا ولما كبروا أتوا بى هنا.

يتركوننى فى الإيواء ولايسألون عنى بالشهور

لفظها فجأة كأنما يتلهف على معرفة هؤلاء الأنذال.

- من؟

- عيالى..

وراحت تتحدث عن الاهتمام بها. فى البداية.. كانوا يأتون ثم قلت زياراتهم لكنهم كانوا يرسلون الخادمة، ثم كفت عن المجىء..

كانت المرأة متقدمة فى السن، داكنة اللون، يحجب شعرها الأبيض منديل مطرز بالخرز.. لمح فى نظرة خاطفة، صحيفة ومجلة ووردة بيضاء مغمور ساقها فى كوب ماء.

طالبتـه أن يأتى بـالصـحـيـفـة.. أرته نعى زوجـهـا وصورته

- كان وسيما

مات ولم تظهر برأسه شعرة بيضاء

مـدّت سـاقـهـا، واعـتـذرت، وشكرت لـه تفـضله.. وهومت.

- كـان يحـبنى فـربيت أولاده على الحب.. لكنهم جحدونى - استقل الولد بالشقة، وسافرت البنت إلى بحرى وجئت إلى هنا..

تنبـهت إلى أنه ظل واقـفا الوقت كله وهى تتـحدث، التمست منه أن يجلس فجلس

- هل تسكن هنا؟

وهو ينظر إليها فى ود حقيقى

- ساكن جديد

- فى أى دور؟

- الرابع

تملته قليلا وشعرت بدفء تجاهه وعطف حقيقى

- أنت صغير يا ابنى على الإيواء

- أتى بى الزلزال

تنهدت فى عمق، فأحس بأنفاسها حارة كاوية،

- ليس أقوى من زلزال الأولاد.

سألته وهو يلملم نفسه

- صوتى وصل لك فى الرابع!

- كنت نازل

- بالليل كده

- الوحدة قاتلة لشاب مثلى

- وللعجوز أيضا

حكت له عن أيامها الأولى، وعن شقتها فى الحى الراقى، وعن امرأة ابنها التى تمكنت وسيطرت، وعن تضحيتها من أجله، وحدثها عن أمه، لاتبرح منامه، وغربته التى خدع فيها، وأخته التى لم يرها منذ تزوجت، وعن الحال المعوج..

وتنهدت هذه المرة فى عمق حقيقى أشعرها بنوع من الارتياح

ـ ياه.. الدنيا قاسية على الصغير والكبير

ـ الحمد لله.. على كل حال

سألته فى تودد ـ هل تصعد لتنام

ـ سأصلى الفجر أولا.

ـ إذن أدع لى..

واستلقت على السرير.

وكان طيف ابتسامة شفيفة ترف على الوجه.

ومدت يدها وأغمضت عينيها..

انحنى، وسترها بغطاء نظيف

وانسل نازلاً صوب الجامع

•••

حين رشف رشفته الأخيرة لمحها تمسك الديك وتهزه، أسعده أنها تبيع، و«الرّجل» تأتى إليها، كان الديك يعافر، ثم استسلم وابيضت عيناه، شاهدها

«تفاصل».. وتساوم فى إلحاح، والمرأة التى تشترى تروح وتجىء، تلمح الديك، ثم تستدير، تصر على الثمن الذى تريده، وتلمس رقبته، وريشه الزاهى المنفوش.. وباعت، خبأت المرأة الديك فى السلة ومضت.. طوحت طرحتها، وأحصت الثمن مرة أخرى ودسته فى جيبها .. وجلست. أخرجت حفانًا من القمح وبذرته.. هاجت الدجاجات، وقفزت الديكة وخبطت بأجنحتها، وأذنت.

نهض فاستقام جذعه فبان فلوحت له.. لبى النداء وسار إليها.. قبضت من سيالتها وأعطته

- من أجل الولد

دقق النظر فيما انحسر من السروال الطويل.. ابتسمت وشدت الثوب ووشت نظرتها إليه بأنها تدرك المعنى.. تعلم أنه يطيب خاطرها، فمن فى حالتها تفكر فى نفسها!! وإن فكرت فهل يرحمها الصغار ويعطونها فرصة!

ودعته لشرب كوز من العرقسوس، أعلنت الصاجات عن نفسها، وعلت الرغوة المزبدة، وارتشفا معًا.

- كيف تسير الأمور

- كما ترين.. أخرج كل يوم إلى الأسواق بحثا عن عمل .

مسكت بحلق القلة، ورشت الماء حولها

- الناس ماعادت تبنى

- لم أمسك المسطرين من سنة

وراحا يتحدثان عن الذين غابوا..

وعمن فر بعيدا عن الإيواء وانقذ نفسه مبكرًا من الموت البطئ، اندهشا مما يجرى فى المساكن ليلا ونهارًا وغفلة الشرطة عما يحدث من ضلالات، والأولاد الذين تحولوا إلى البلطجة وسرحوا فى الشوارع، والأقبية، والدروب والأسواق، يحددون سعرهم، ويفرضون الإتاوات..

- الحكومة نسيتنا

- عشر سنوات.. على أمل أن تمنحنا المسكن.

زفرت فى هم حتى كادت الزفرة تحرقها، ولاح عليها كمد حقيقى.

أحب أن يخفف عنها، فهى مثلهم يحيطها العناء من كل جانب.

ـ وأبو العيال.. أخباره إيه

لم تعلق، رنت إليــــه طويلا ولم تنطق. لاتريد أن تخوض فى أمره. تركها منذ عامين ولم يعد.. هذا يكفى.. كسرت وراءه «قلة»، وأراحها من همه الطويل، لابد أنه «لاف» على واحدة مثله، فهو لا يصبر على الابتعاد عن المعاشرة طويلا.. حين يحدث يصبح كالمجنون عيناه تفطان منه، وتلاحق الرائح والغادى.. أنا أعرفه فليشبع بها.

وطفقا يضحكان ويبعدان الهم عنهما.

●●●

يلتقط رزقه حسبما تسمح الظروف، وهاهو يتوجه إلى الحاج بمجرد أن لمح الإشارة، عكس فص الخاتم الذهبى شعاع الأصيل، فتيقن أن اليوم مبروك، والخير سيطوله.. تؤذن الشمس بالرحيل ونسائم الغروب تهب فتنعش النفوس.. حتى إذا هبط الليل يتردد الدعاء بالصحة والستر من نفوس رطبها شعور دافئ بالمودة.

هذا موعده مع النحر، ينحر الذبيحة والنهار يلملم ضوءه، حتى إذا جن الليل وبدا يسفر عن سره، يكون قد انتهى فى خفاء العتمة من توزيع الأنصبة..

عادة لم تفلت منه منذ أن عرف النحر، يقدم عليها فرحًا، يجمع حوله من تطوله عيناه حتى باتوا معروفين لديه.. ويرسل إليهم إن تأخروا. حين غاب ولده طويلا فى بلاد الغربة دون أن يستدل عليه نذر لله أن ينحر أول كل شهر عربى شاة أو ماعزًا احتسابا لله إن منّ الله عليه بعودة الولد.

والولد يعلم الثـــراء الذى عليـــه والده.. طلب منه السيارة والشقة والمصروف الوافر.. ربت الحاج على كتفه مبتسما واشترط أن يتزوج من ابنة عمه فهو أولى بها، وبثروتها، وزواجه تدعيم لأواصر القربى.

تململ الولد، ثم رفض، وأصر على رأيه.

تجاهل الحاج رغبته وأصم أذنه عن إلحاح الأم، ولما نفد صبره ويئس ترك البيت، اعتكفت الأم باكية ومنعته من الاقتراب منها واشتعل الحنين فى قلبه، وكاد

يحرقه، إلى أن جاءه خبر ذهابه إلى إيطاليا.. كيف سافر، ودبر المال وجهز الأوراق دون أن يعرف!!

ظل ينتظر طويلا، احتواه الحزن حتى كاد يضيع.. لكنه لم يفقد الأمل يوما.. بعد صلاة الفجر أخذته سنة من النوم.. كان مضطجعا، والكائن الشرير يعلوه، ويسيطر عليه، قرناه كقرني الوعل، وجهه وجه جدي أسود، شعره فاحم وملبد.. ظل يجاهد أن يتداخل.. وهو تحته يئن، ويزوم، ويدفع بساعديه كلكله الخشن.. يعي أنه يصارع عدوا، لكنه عاجز أن يصرعه.. حتى إذا أوشك أن يستسلم جاءته لمسة في الكتف. رمق صاحبها فرأى الولد يدير ظهره ويبتسم، نتر جسده الهامد، ومسح شلال العرق واستعاذ بالله.. وأعلن في الصباح أن عودة الولد وشيكة .

في المسجد وهو يؤدي صلاة العصر بلغه نبأ عودة ولده..

فاضت الفرحة حتى راح ساكنو الإيواء يترددون على بيته الفخيم المطل على النهر الصغير أسبوعًا بطوله، يتعشون ويأخذون معهم لأولادهم.

أسلمه الجدى وذهب للصلاة..

صلب عمودى الخشب، وربطهما بحبل سميك، بدوا كساقين مفرودين ومغروزين فى وجه الأرض، لف الحبل وأدلاده. وعقد العقدة، ووسع لها وتيقن من متانتها.

تتدلى أعواد البرسيم من فم الجدى السمين.

وهل عليه يفيض بشرًا..

انتظر حتى مضغ البرسيم وابتلعه، قدم الماء فى سطل صدئ، عب حسوات قليلة وماءَ. مسح على ظهره فتوقف، رفع رأسه وشد أذنيه وخبط قوائمه ثم دقق النظر فيه، مط عنقه ناحية البرسيم فحمله وطرحه أيضا، أرقده على جانبه، بسرعة ربط قائمتيه الخلفيتين وقيدهما فى إحكام، استسلم الجدى لمصيره، وأذعن،عيناه ترنوان فى هوان، وكف فكه عن الحركة وانتفخت أوداجه، طرح على رأسه غطاء فحجب عينيه.

طوى بنطلونه، فعلا صوت الحاج يذكره أن يسمى بالله ويكبر ثلاثًا ويصلى على النبى.. لمعت السكين فى

الضوء الشاحب وبحزة واحدة فصل الرأس، واندفع الدم كنافورة.. حمل الجسد الهامد ورفعه وعلقه فى عقدة الحبل وأحكم قيده.. ومشت السكين - فى رهافة تفصل الجلد عن اللحم.

يتفكك الجسد.. الكرشه، الكبد، المصارين، القلب، الفشة، الكوارع، الرقبة، الزند.... ويخلص اللحم من «الشغت» والدم المتجلط.. ويتلقى الطست اللحم قطعة قطعة، وعضوا عضوا.. حتى بات اللحم صالحًا للتوزيع..

يعرفون الموعد لايفلتونه أو ينسونه..

والحاج يلقى نظرة أخيرة على صف النساء من العجائز والفتيات والصبية الصغار..

وقبل أن تمتد يده بالعطاء يكون قد أكرمه فيعطيه نصيبه، ويدخر لنفسه الكبد.. يأخذ منها فصًا مدمما ثم ينحيها جانبا.. هى كل مايحصل عليه من لحم الذبيحة.. ويمر عليه المحتاجون فردًا فردًا، يرددون الدعاء بطول العمر والستر فى الدنيا والاخرة.. ثم

يقبضون فى متعة بادية على **نصيبهم**.. ويهرولون إلى مساكنهم.

●●●

أثناء العودة تذكر وعده **لولده**.. عليه أن يدخل الفرح إلى قلبه، فيشترى له مايحب.. **هو** الذى خرج به من الدنيا، صغير لكنه سينمو حتى **يطوله** ويزيد.

أمه تتمنى أن تنجب مرة **أخرى** حتى يشعر بالأنس ويبعد عنه عذابات الوحدة، **وشعوره** بالضجر، ينال الحب كله منهما، ويفيض **عليه** جده بما يحب، لكنه يظل.. يبحث عن بنت «**عيوشة**» الشغالة، حتى إذا وجدها برقت عيناه كأنه **قبض على** شىء عزيز ضاع منه.. يكتشف عالما بهيجا **لايجده** فى حجرته.. يهبان ضاحكين معًا، كأنما على **موعد**.. تخرج الضحكة كفقاعة من السعادة، ترن **مجلجلة**.. وينتفض الجسدان انتفاضة البراءة.

يخطان فى التراب طرقًا **ودروبًا**، ويبنيان من الحصى بيوتًا، ومن الأوراق **مراكب**، ومن مصاصات القصب مراتب ووسائد.. **ثم يمرحان** مع الجراء

الصغيرة.. وتظل **البنت تطوف** بالولد.. حتى إذا أذن الشيخ لصلاة المغرب **تخرج** الأم باحثة عنه فتجده ساكنا وديعا مع **البنت فى** صحبة جرو أسند رأسه على قائمتيه وبدا **وديعا مثلهما**.

ما الذى يمنع **الإنجاب** مرة أخرى!.. خصبة كالأرض السوداء **الطيبة** التى تنتظر الرى والبذر ليتشقق الأديم عن **نباتات** خضراء وارفة.. وهو العفى القادر على الاستزراع.. **فما** الذى يمنع الإنبات!

ويتساءل: لماذا **نحن والحجرات** تغص بالعيال!

ومهما لبست **العقيق** الأحمر وغمست الصوفة، واستحمت لحظة **اكتمال** القمر، وتبخرت بالصندل ومرخت جسدها **بالخروع**.. فالرحم لم يعد يسمح للماء أن يتسرب **ليروى**..

وظل يتساءل **لماذا نحن**.. حتى أسدل الليل ستاره.. وأغطش الكون.. **همس فى** وجع شفيف: غدا سأحقق حلمه واشترى له **مطلبه**.

(٢)

رمقت ولدها الصغير وهو يتقلب على فرشته. دفعت الباب وانحنت على سور الشرفة الممتد بطول الدور كله وينتــهى عند دورة الميــاه، بدا الجــســد فى انحنائه منحوتا، تلمع سمانة الساق كلما شبت على أصابعها، ازداد انحناؤها فــجــذبت طرف الثــوب تحت الكوع فتحدد الخصر والفخذ. قديما كانت العيون تتلصص وترسل نظراتها تتلمس الجسد، أو ترقد عليه.. وبرمت الكواهل يطالبنها بالتحشم لكنهم اعتادوا، فتجاهلوا بحكم الزمان، وتحرر المكان.

نادت على والدها.. ليصعد ويشرب الشاى معها.

اليوم راحتها.. تطبخ، تنظف الغرفة، تغسل الملابس، ثم تختلى بنفسها، وتقتنص وقتا ساكنًا تستحم فيه، لاتأبه بمن يستمع إلى نغماتها الشاردة. أو من تستعجلها، فهى لاتقاوم رذاذ الماء المتناثر على جلدها الناعم، ولاتضمن فرصة أخرى مواتية.

وحين تنتهى تهفو نفسها إلى الدعة وشرب الشاى.

فتحت دولابا صغيرا، وأخرجت صينية تلمع، ورصت فوقها الأكواب، والتقطت عبوة السكر، ومسحت الملعقة بطرف ثوبها ووضعت البراد على الموقد .. وراحت يداها تجففان خصلات الشعر وهشت للولد وهى تراه يضحك ويعكس ضوء النهار بياض أسنانه.

بقية الأسبوع تذهب إلى بيت الحاج فى الطرف الآخر من النهر، ينفتح الباب، وتستقبلها الردهات الواسعة.. تعرف طريقها، فتخلع ثوبها، وتلبس آخر قديما وهبته الحاجة لها، ترفع جانبا منه تدفسه فى تكة السروال فيعلو على الركبة، تقمط شعرها ويأخذها العمل. الكنس، النظافة، الغسيل، نشر الملابس، رتق الجوارب والشملات..

تقبل عليها الحاجة فتدس النقود فى كيسها وتنطلق إلى السوق.. تشترى الخيار، والطماطم، والخس، وتنتقى أعواد الكرفس باهتمام فالحاج يفضله من يدها، تفاصل فى شراء الفاكهة والبقول، وتختار الملوخية عودًا عودا وتختبر طزاجة الساق والأوراق، حتى لاتغضب الحاجة وتنهرها حين ترى أوراقا ذابلة، أو أعوادا منقصفة.

فهى التى ستقطف الورق الأخضر، وتبعد الصغير الناجم فهو يضر المعدة ويضفى مرارة على الطعام، وتقف فى همة بادية كأنها مقبلة على عمل جلل، فتسكب البصل المحمر فى الزيت على الملوخية، ولاتستريح إلا حين تسمع «طشة التقلية، فتتباهى قائلة: هكذا تكون الملوخية!!

العناء الذى يلاحقها لم ينل من الجسد المشوق، بل أبقى على طزاجته فخلا من الترهل، وأكسب الفخذين صلابة والصدر اكتنازًا ونفورًا. لكن الكفين يبدوان فى العين المحدقة خشنين.. فيروح البصر فى تهويمة طويلة..

وحين يؤذن العصر، وبعد أن يفرغوا من طعامهم، تكون قد تأهبت للعودة، فى آخر كل أسبوع تطيب الحاجة خاطرها وتمدحها على عملها، وتكرمها بمنديل، أو شبشب، أو ثوب قديم ضاق عليها أو حلوى للولد.. وتطالبها بأن تصحب ولدها معها ليلعب فى الجنينة.

تضع لها الطعام فى كيس، وتقبض على جنيهات قليلة وتدسها بيدها فى جيبها.

تتخفف من ضغط المواجهة فتتمانع لكن الحاجة تزغدها فى صدرها.

- المرة القادمة ادخر لك ثوبًا جميلا

ويفيض الوجه ببهجة حقيقية وتدعو لها بالعمر الطويل فى كنف الحاج رجلها الطيب.

تمضى الحياة بها ساكنة حينا، صاخبة حينا آخر، يضيئها نور يروح ويجئ، يكشف عن لحظات تفيض بمتعة خالصة أو ألم عميق يصعدان ويهبطان فى متوالية لاتخطئ الحساب.

فى الليل حين يغزل القلب قماشته الدافئة ويدثرهما.. يتبدى وجهها متألقا، ومتهللا، وخاليا من الكدر، وينضح بعسل مصفى وتهب السخونة فتحيلهما طائرين يحلقان فى سماء الغرفة.. وفى الصباح يقبض الإصرار على ملامحها.. تزم الشفتين، وتشد المنديل على رأسها، وتلم الثوب عند الرقبة،

وتترك حلمها عند ولدها.. وتمضى إلى عملها..

٣

فى الطريق إلى غرفته كانت تبصره يميل ناحيتهم ويرفع رأسه ويرنو فى وداعة، تعرف أنه يتحجج بالسؤال عن الوالد ليراها فتسرع ـ فى غيبة الأب ـ خارجة لتقابله، لم تدع له فرصة أن يدخل، أو يتحادث فى مقدمة الغرفة فيتم اللقاء كالمصادفة. يبتسم فتضحك فيأخذه الحياء ويهل عليه طيفها فتبدو كأنها تنتظر، يمد يده فتستريح أصابعها فى باطن الكف الدافئ ثم تسحبها فى بطء وهى تشعر بنبضات القلب تدق فى الشرايين، يتملى عينيها الجميلتين وصدرها الذى يسفر عن ثراء حقيقى.

تنبض عروقه فجأة ويفور دمه، فيعلم أن موعدالعودة أقترب، تعود من عملها فى البيت الكبير والشمس تضرب إلى الصفرة، والأفق يتشح بنسائم رقيقة تجلب معها رائحة الحقول البعيدة.. تهل بوجه مشرب بالحمرة وخطوات مهرة واثقة، يحف بها عن قرب فتغض الطرف حياءً، يتساءل.

- لم أر الوالد منذ يومين

- أنت لم تصل بالجامع إذن!

لايغيب عنه أن الأب يظل ملازمًا الجامع منذ صلاة المغرب حتى صلاة العشاء، وبعد أن يطمئن على الأنوار، والأبواب، والميضأة يغلق الباب ويعود.. يوجعها نظرة الانكسار التى تطل من عينيه أحيانا، مع أن البريق الخاطف حين يتحدث عن الوحدة والمؤانسة والبحث عمن يشاطر القلب غرفه القانية.. يأخذها بعيدًا، فتظل تطوف وتحلم، وتتساند على رمش العين المخضل بالبلولة..

طيب، لايلف، ولايدور، يعطيك نفسه، كأنه الصدق.. أسرها، كما أسرته.

ظل يراقبها، عينه عليها، يناديه خطوها، وعطرها النافذ..

راقبها فى طريقها إلى السوق، وأمام الباعة، وهى تنشر الغسيل، وتغسل الأطباق، وتحادث «القابلة» على شاطئ النهر الصغير، يتابعها فى الذهاب أو العودة. يكمن فى المنحنى حتى إذا مرت رأته صاعداً فترتج وتقنى حياء..

يمضى إلى أطراف الحديقة ويتسلل فى دهاء، كانت تشعر بأنفاسه تفوح بالأرجاء كالعطر: ترتعش أطرافها، وتروح فى تهويمات متوالية، وتدرك أن رائحة الرجل تطوف بالمكان، تملأه ذكورة وتدعوها إلى المجئ.. تنده لها، تلتمس الأعذار للذهاب، وتمضى كالمغيّبة، والعقل يتخيل الأمكنة ويرسم الصورة له.. بحجم خيالها العريض.

تجده جالساً تحت جذع الشجرة، أمامه النخيل الأخضر والأعشاب الخضراء. يرتدى القميص الزهرى المشجر، والبنطلون الجينز الكحلى الباهت، فهو يحرص على حسن الهندام مع أن عمله بالمعمار لايسعفه كثيراً فى انتقاء الزى المناسب.

كاد قلبها يطير وهو يحيط كفها بيديه..

خرج صوته مغموسا بماء الفرح فانتشت

همس فى صوت خفيض منغم

- سأخطفك خطفا، ولا حصون الدنيا تمنعنى عنك

وجلتْ غبطة واندهشت وصكت صدرها

- تخطفنى ياسيد

تأملها وهى تخبط برموش العين

- على متن جواد أبيض

وراحا يلملمان حبهما ويواريانه خوفا من العين ولسان السوء.

●●●

تيقن «سيد» من قلبه وقرر الذهاب..

أخبر الشيخ برغبته فى الزواج من ابنته، تأمله الرجل طويلا، فرَد الحصير ثم ارتدى ثوبه، وأغلق باب الجامع وسحب نفسه عائداً، لم يتوقع الأمر. نزل

المطلب عليه داهما، لم يترك الولد فرصة للجدل، أطلق رغبتـه كـالرصـاصـة المدوية.. ياحـاج لـى الشـرف أن أتزوج كريمتك على سنة الله ورسوله، وسـأضعـها فـى عينى، وأجعل قلبى لها سكنا..

هذا كـلام مـحـبـين، يخرج مـن القلب، لكنه ليس من يريده زوجًا لابنته، يكفيها ما لقيته من عناء منذ وفـاة الأم، يفـضل لهـا رجـلا على درجـة من الغنى يغطى حاجاتها ويبعدها عن الخدمة فى البيوت، ومضـى دون أن يفوه بكلمة.

فى المساء وهى تجلس على حافة الكنبة نظر إليـها فى تـأنٍ فـضح قلقـه، وأدهشـه السكينة التى تمـلأهـا، ونظرة الغياب فى عينيها وقال فى صوت بارد:

- سيد طلب يدك اليوم

رمقـهـا بركن عينه اليمنى فلمحـها تجاهد البـهـجـة حتى لاتسيل حولها.

احتد وأدرك أن الأمر مرتب بينهما

- أتفقتم من وراء ظهرى

تسرب إليها الخوف، وقبض عليها الخجل

- لك الأمر فى الأول والآخر

- منذ متى

طأطأت رأسها ثم اشرأبت فجأة

- ربيتنى على كرامة النفس وحماية الجسد

أنا ابنتك.. أم نسيت

راح يدرس الحالة، ويقيس ردود الأفعال، فهو لايحب أن يقف عائقًا أمام حياتها التى اختارتها، لكنه يجب أن يتيقن، فالمرء حين يحب يغطى الهوى عينيه ولايبصر جيدًا، ولكنه أيضًا لايحق له أن يوافق لمجرد إرضائها فمستقبلها هام بالنسبة له، وضرورى لها وعليه أن يجنبها مزيدًا من العناء الذى تقاسيه.

- أتحبينه؟

لزمت الصمت وشعرت بأنه يضغط عليها فهبت واقفة تكتم نحيبها وتضغط «نهنهتها» التى ينتفض لها الجسد، شربها بعينيه ولم يقو، رق لها القلب، فهى حبه، وعينه، وحلمه الذى كاد يأفل.. نهض واحتضنها،

احتواها بذراعيه. وأحست بحضنه الحميم يدفئها فراحت تنشج فى قوة حتى رجته رجًا، وظل محتفظًا بها حتى هدأت، ربت على كتفها وطيب خاطرها وقال كأنما يلقى من على كتفه حملاً ثقيلا.

- يفعل الله مايشاء.

●●●

كان قد شغلها وملأ الفؤاد..

صاحبها فى الصحو والمنام..

وخشيت من والدها، خافت أن يكون قد رتب لها أمرًا فى الخفاء.. فمعارفه كثيرون، يترددون عليه فى الجامع، يؤذن لهم، ويؤمهم أحيانا ولن يعدم أن يجد من بينهم واحدًا يليق بها.. وحدود اللياقة عنده هى المال، والخروج من مساكن الإيواء.

وأن تعيش فى بيت به دورة مياه مستقلة، وباب ينغلق عليها ويستر خصوصيتها.

باحت بمخاوفها إلى «أم توحة» القابلة..

طيبت خاطرها وأخبرتها أنها لن تنكسر أحلامها، وأنها وإن كانت توافق والدها فى رغبته، وتفضل لها

البعد عن الإيواء بناسه وهمومه، إلا أنها لاتقف أمام الحب.. ولاتقوى على مواجهته.. ولاتحب أن تقصف القلوب الهائمة فى براح الهوى

التجربة غريبة هذه المرة، عادة يحدث الأمر لجلب الحب من أحد الطرفين لكن الطرفين محبان، ويسعيان إلى الزواج.. عليها إذن أن تعمل جاهدة على ترقيق قلب الأب وانتزاع الموافقة منه.

ناولتها المنديل، والطاقية..

طلبت منها أن تبوح برغبتها، وتنفث فيهما سرها وهواها..

وضعتهما على عينيها ودفست وجهها وراحت تتمتم..

دعت الله أن يبعد عنها السوء.. ويحقق لها الفأل الحسن، ويساعدها على الزواج من سيد.. ويبعد عنها الحسد الذى يفلق الحجر، ويرقق قلب الأب ويزيح من دماغه مايفكر فيه.. ويوافق على زواجها.. وتأجج الفحم واتقد، وتوهجت النار.

وراحت أم توحة، **ترمى بالبخور**، وحبات الملح وعلت سحابة الدخان و**طافت بالمكان** حتى عبق تماما. ظلت تردد الأدعية **وتغسل الأثر** بالبخور.. وتهمس فى ابتهال.. اللهم لا سهل **إلا** ماجعلته سهلا وأنت جعلت الصعب سهلا، سهل **لأمتك** بنت أمتك زواجها وابعد الشيطان عنها، وصن **ختمها** من الحرام، واغرس فى قلب الأب محبته **لسيد، عبدك** الذى يحب أمتك.

وانزع من دماغه **اعتراضه**، وابدله بالموافقة، بحق السيدة والحسين **وآل البيت**، وبحق الحب الذى زرعته فى النفوس، وبسر.. **طسم** ونون.. اغلق ياربى باب الشر وافتح باب **الخير.. وساعد** مبروكة على الزواج من سيد.. على سنة **رسولك** الكريم.

ولم تكن قادرة **على استيعاب** الموقف..

كانت ترتجف وتبكى، **تنتحب** وتشهق..

حتى إذا انتهت **مسكتها** من ذراعها بقوة وقالت

- يلبس الطاقية قبل **النوم**

وتضعين المنديل **تحت المخدة**

وانتظرى الفرج

●●●

فى غبشة الليل نقرنقرة خفيفة، فتحت الباب فوجدته أمامها واقفا لايتزحزح، نطقت باسمه فى دهشة خطفت قلبها.. وجمعت فى عينيها أحلام الأمس: وقالت فى حدة.

ـ أين كنت؟

ـ كنت لابدًا له

ـ لمن!

ـ للحاج.. مؤذن الجامع المحترم

خبطت صدرها واستهجنت حديثه، خافت أن يكون قد فكر فى شىء يسيئ إلى الأب، أو يصيبه بالضرر. زمت شفتيها وتبرمت، وطوحت بيدها.

رقصت الفرحة داخله فلم يقو على كتمانها فرقص..

كانت السعادة تفيض حتى كادت تغرقهما

كبت وجهها كله عليه وانتظرت، العين فى العين، والشفة تقرأ خلجات الشفة. وتأمل الوجه الوضىء، والرقبة السارحة، والشعر الأسود الساكن على الكتف، والشجن اللذيذ الذى يصنع لهما خميلة يلجان فيها ويستحمان..

وراح يرقص، ويتلوى

والتوت الرءوس، وراح الصغار يقلدونه، ولم يأبه بأحد، حرك الذراع، ونتر الساق، وقفز فى الهواء.. وهى تزعق تطالبه أن يعقل، وأن يخبرها بشىء يريحها.. كيف يلبد له، ويرقص، أمرته عيناها أن يكف، وأن يلملم فرحته ويخفيها إن فرح حقيقة، وألا يعطى الفرصة لألسنة السوء..

لكنه تمادى.. وظل يرقص

تنحت قليلا ومسكت بالباب. كادت تهرب من الموقف وتدخل لكنه منعها بقوة الذراع، وحدة الأشعة النابعة من جسده كله حتى أوشكت إرادتها أن تنحل أمام هذا الذى تراه ولايقاوم

ونطق فجأة، خرجت العبارة كالشهقة التى لاتجد لها طريقا.. غير جذب أنفاس الحياة

- وافق ع الجواز

تملته لحظة.. وتجمعت الأمسيات، واستعادت الأحلام، والفراشات المحومة، وأغصان الشجر المدلاة

تسترهما، وبساط النجيل يستقبل همسهما، والنجوم تخفق تبارك الهوى.. وارتعاشة القلب،، وانقضت عليه.. واحتضنته

لم تبال بأحد.. ولم تأبه للصغار

وانهل الدمع من عينيها كشلال، وراحت فى غيبوبة النشوة، والصغار يصفقون ويصيحون

ـ بنت الشيخ بتحب

ودخلت مبروكة إلى الغرفة

فتحت النافذة، وتلقت نسائم أول الليل، وفتحت قلبها، وحدقت فى السماء، أحصت النجوم التى رافقتها وبحثت عن هذا الأحمر القانى الذى بث فيها الأمل ودعاها إلى صحبته كل ليلة، وألا تمل الرحلة

وإن طالت..

واسترخت على الفراش

حلت جدائل شعرها، فتبدى الوجه بدرا..

وخطف الأفق عينيها، وراحت ترنو إلى البعيد، تبحث عن نجم يضوى بنور قوى ونافذ. يمضى فى

رحلته ويدعوها أن تقبض على الضوء، ولاتفرط فيه - حتى تقوى على مواجهة الزمان، وتتمكن من تحقيق الحلم الذى ملك عليها أقطار النفس..

●●●

٤

أنهى الصعود واستدار يخب فى جلبابه. اكتسبت خطواته طابع العادة. تطل الوجوه تلقى التحايا وتتلقى الدعوات .. ويتوقف السائرون للسلام، وبدوا كما لو كانوا يخطون معه.. معروف لديهم.. عنده تنفتح القلوب، وتنفك الألسنة، وتنكشف الأسرار.. تلجأ المرأة إليه فيريح صدرها من الغل والغيرة يؤنس نفسها ويستل وساوسها بحديث طلى يرطبه بآى من القرآن وحديث النبى وحكمة الأولياء..

هش للصغار فراحوا يلتفون حوله ويهمهمون، وقبضت الأكف على حبات الحلوى.. والتمر..

يحرص على البخور نهار كل يوم، تفوح غرفته برائحة الطيب وأدخنة الصندل والجاوى والمستكة، تتسرب الرائحة إلى الغرف الأخرى فتنفتح النفوس وتتشقق.. وتروح النسوة وتجئ، يدعونه إلى الغرف ويطالبنه بتشريفها.. وينتهزن الفرصة ويفتحن صدورهن ويستحممن بالعبق.

يخففن عليه الشعور بالوحدة التى تنسكب على النفس والليل يدثر المساكن ويلفها فى قماط مشدود من العتمة.. وتظل أضواء الشمعات تنكسر على طلاء الغرفة الباهت فتشكل أشباحًا تصنع رهبة تشمل الروح.. وترجف نفوس أصحاب الحاجة وهم يلقون أمامه بهمومهم.

يتركون فى الغرفة الشموع والحلوى، والبخور، والبقول وأطباق البليلة.. وتجتهد ابنته فى تصريف الطعام بعد أن تنال ما يكفيها.. ومع أن الساكنين جميعا يحتاجون إلى هباتهم، إلا أنهم يؤثرونه بعد أن صار ركنا فى ساحتهم المليئة بالهم والوهم والفرح الشحيح.

يعرف الدرب الترابى خطوته المتأنية وهو يتلقى أول خيط الضوء البازغ من هالة الفجر.. فى طريقه نحو المسجد.. وسرعان ما يعلو صوته بالآذان.. تتعالى تكبيراته وتسبيحاته، يتردد الصوت فى تنغيمات شفيفة ناشرًا صفحة البكور، وطاردًا خدر النوم، وداعيا إلى طلب المغفرة.

بعد الصلاة يكون أول من يقف أمام باعة العطارة، يهل عليهم فينهضون، تنفرد ملامحهم ويبتهجون، يقرأ الفاتحة، والمعوذتين ويدعو.. يختار البخور بعناية، ويشترى قدحًا من التمر الإبريمى وشمعات ملتويات وقوارير من العطر..

•••

أقبلت المرأة قاطنة الحجرة القبلية، هرولت، مسحت يدها بثوبها، ولفت كفّها وسلمت ارتكن إلى الجدار، ومسّدتْ أصابعه شعر لحيته.. وابتسم.

كانت تقف أمامه تجاهد أن تضيق المسافة بينهما بمقدار ما يتيح للأذن أن تسمع الهمس، فما تود أن تلقيه إليه سر يثقل خاطرهاولا يحق لأحد معرفته

سواه، فعنده ينفض، أحمالهن، وهو وحده الأمين على الأسرار، ما باح يومًا بسر أو لمح بشيء، ما يسمعه يدفنه فى جب غويط.. ويبقى له أن ينصح، ويحل المعضلة إن استطاع ويتابع ما يجرى.. ويطمئن.

رآها قلقة، متوجسة، تتغضن ملامحها.. وترتبك..

- مالك ياستْ..

بسطت كفها، وربتت على صدره..

- وقعتُ فى الغلط يا حاج.

تمتم فى ابتهال : - اللهم اهد عبادك.. احك يا عيشة

- رمى «ابن الكلب» يمين الطلاق فى المغرب..

- لا تدعى للغضب سبيلا فتسيئى إلى الناس..

تقلصت قبضتها : - هذا زوجى وأنا أعلم به

أوقعنى فى الغلط يا حاج، وأخشى عقاب الله

احتدوتغير لونه : - تخطئين، ثم تشكين.. ما الحكاية بالضبط

خرج صوتها ضعيفًا : - هو السبب..

أدار وجهه ولاح عليه غضب ارتجفت له شفتاه واهتز شعر اللحية، أدركت المعنى حين رمقته فأسرعت قائلة.

- لا يذهب عقلك بعيداً..

فى منتصف الليل أرادنى فامتنعت

- لا يحق لك.. تهتز السماء لامتناعك.

ردت فى صوت مباغت له صرير

- طلقنى يا حاج

- أنت غاضبة للطلاق أم لأمر آخر

أخفت وجهها بطرف شالها الرمادى وسترت خجلا باديا

- لم يترك لى حيلة فاستجبتُ له

ضج الحاج وابتسم وكادت ضحكته تجلجل، لولا زغدة من المرأة له أوقفته، لكن الفرحة فرشت وجهه كله، وأضاء جبينها حياء فصمتتْ وظلت ترقبه.

- الحمد لله .. اطمأن قلبى.

- أخشى أن نكون أخطأنا

مالت برأسها ونظرت إلى أسفل

- ماذا تركنا للصغار إذن

- هذا أول طلاق لكما..!!

- يقول إنه الثانى.. وأنا لا أصدقه

إنه يحلف بالطلاق على أى شىء

نظر إليها وأمعن، حتى خالت النظرة تخترقها

- لاينال الرجل حاجته إن لم ترغب المرأة.. المعاشرة حلال.. وذلك آخر طلاق لكما.. «الطلاق مرتان فإمساك بمعروف أو تسريح بإحسان»

اطمئنى، سأقابله، وأنصحه وأتشدد معه على أيمانه هذه..

انْفتحت عيناها حتى كاد.. بؤبؤ العين أن يقفز

- يعنى الأمر بعيد عن الحرام

- حلال كله..

حين تركته لحاله ومضت وشتْ حركتها ببهجة داخلية، يتحرك الجسد فيفيض عليها اهتزازًا كالرقص.

●●●

استقبله الولد صاخبا، وألقى بجسمه كله عليه قبل أن يجلس ـ حمله، وأجلسه على فخذه، واحتضنه وقبله أخرج البسكويت والتمر واللبان وهش الولد ضاحكا.

جاءت بالشاى ووضعته أمامه..

جلست قبالته صامتة، ترمق ولدها وهو يختلس النظر إليها. مدّ كفيه، فتناولت منه ما أعطاه جدّه له وأبقت اللبان.

قبضت على البرّاد وصبتْ.

أخذ الرجل يرشف فى لذة واستمتاع، أغراه برائحة الدخان فأخرج علبة سجائره وسحب واحدة، التقطها فى خفة لا تُخفى شغفه.

ـ الدخان يضر بصحتك

أشعل السيجارة، ونفث الدخان فى تلذذ وقال :

ـ متعتى الوحيدة الآن

واحدة فى الصباح، وأخرى بعد الغداء، والثالثة بعد صلاة العشاء..

خطف نظرة إلى وجهها الساكن

- ليس فى الثلاثة ضرر

نتر الولد نفسه وهب مسرعا حين جاءه صوتها الطفولى الرقيق، قبض على البسكويت ورمح حتى كاد يصطدم بالجدار..

ضحكت حتى بانت أسنانها فأدرك أنها خرجت من القلب

- لا يطيق البعد عنها

يظل مبتئسا طوال اليوم إن لم يرها

وحوّمت عتامة فأقلقت والدها

- لو كان له أخ أو أخت لاستراح..

- المساكن مليانة بالعيال

ولا ننام من صياحهم.. دعيه يلعب معهم

- يلعب!

خرجت الكلمة مغموسة بهمّ يكوى النفس، هذا الحزن الذى لايغيب عنها أضحى يقلقه ويدعوه إلى

وقفة معها.. ماذا كان يحدث لو لم تنجب.. ظل يتأملها وهو يطفئ السيجارة، وينهى رشفة الشاى الأخيرة.

- يا ابنتى ليس فيكما عيب واحد

- يا فرحتى!

صوّب بصره فى إمعان كأنما يختبر فيها أمرًا.

- أتخافين على بيْتك

قالت هازئة : - بيتى!

لمت الأكواب والبراد، والصينية.. وأخرجت درنات من البطاطس وبدأت فى تقشيرها بالمقشرة الصدئة.. لمّا سأل عن زوجها توقفت لحظة ثم تابعت تقطيع البطاطس..

حين تطل على المرآة يبزغ الحلم الذى يطاردها وينده عليها لا يفارقها لحظة، وتبدو كما لو كانت منذورة للجرى وراءه واقتناصه، ظلت تحلم، وتحلم، صباحًا ومساءً حتى ضاق الصدر.. وتعودت حتى أوشكت العادة أن تسحب منها الروح..

تلقت نظرات العيون وأغضتْ، وصلها الفحيح فصمّتْ أذنها، تجاهلت **خبطة هنا**، ولمسة هناك.. تغض بصرها عن مماحكات **الرجال** فى دورة المياه المشتركة، وارتجافات **الشباب**.. لكنها نمرة شرسة إذا تمادى أحد..

تتجاهل الحكايات، **وتحفر** فى داخلها نفقا لعلّ الحلم يباغتها ويسكن فيه.

(٥)

وضعت الأرغفة الساخنة فوق صحيفة يومية قديمة.. تشعر بطزاجة الخبز ودفئة، تقتطع لقمة وتغمسها فى «الدقّة»، تلوكها فى تلذذ وهى تباشر موقد الغاز..

أخرجت «كسرولة».. من الألمونيوم، رتبتْ البيض، والفلفل الأسود والفلفل الأخضر، والبصل الأحمر وشرعت فى إعداد طعام العشاء، غرست السكين فى قلب فلفة خضراء..

وبحثت عن الكبريت

قبل أن تشعل العود رنّ صوت خارق للأذن، يرعب القلوب، يتعالى الصوت والليل فى غبشته الأولى فتسقط السكين وتصيب قدمها، لم تأبه وأرهفت السمع علها تعلم من أين يأتى؟

والصوت الملهوف، المرعوب، يقطر ألما ويفيض، يأتى من الطابق الثالث الذى تطل واجهته على الرحبة الواسعة ارتعش جسدها، وكاد شعر رأسها ينفر، فبالرغم من تعودها لحالات من الحزن والمكابدة إلا أنها شعرت هذه المرة بوجع حقيقى، عادت والتقطت السكين، مسحت القدم، انتقت بصلة حمراء مستديرة وبدأت تنزع الورق الجاف، استعاذت بالله من الشيطان الرجيم وطلبت الرحمة لعباده.

لا يغيب عنها العويل، أو النواح، أو العراك، فلا يمر يوم دون أن تتعالى الأصوات المبحوحة، ولا يتخلف خصام الأزواج أو مشاحنات النسوة.

ظلت تتساءل من أين يأتى الصوت المفجع؟

دقّ الباب فتوجستْ، جذبت الباب فى قوة بادية ولهفة واضحة، ألقى الولد الصغير كلامه فى ذعر بادٍ.

- ابن مبروكة «مِسُورق».

يستدعونها كل يوم.. طلباتهم كثيرة، وحالتهم لاتسر أحدًا.. مدعوة فى الفرح، والحزن، والمرض، والولادة، والخصام.. اكتسبت الخبرة، وتعلمت كيف تداوى الجسد والنفس، وضعتْها التجربة فى مواجهة دائمة مع الداء.

طبَّبتْ العلل بالحقن، والزيوت، والأعشاب، غُرفتها لا تخلو من الينسون، والشمر، والخردل، والبردقوش، والحلفا بر التى تقدمها لجيرانها لإدرار البول وحماية الكلى من الماء الآسن الذى يشربونه.

حين ذهبت إلى الدخاخنى وجدته يعانى من صداع شديد.. رأسه ثقيلة، وأية حركة تكاد تخلع روحه وتهوى به، وجهه أحمر كحبة الطماطم، ماذا يمكن أن تفعل، والرجل مزرود، وتوشك عيناه أن تفرا منه، لاينفع معه الشيح، أو الرقية، والدهانات، برق فى ذهنها «الوردانى» حلاق ناحية الشوايشة، وهو يبرك على صدر تاجر المواشى الضلالى ليستل صداعه من رأسه، مسك الموسى، وبدأ يشرّط جانبى الرأس عرفت فيما بعد أنه فصد للدم.

علمها فيما بعد كيف تفصد الدم وتمسك المشرط فى رهافة.. صاحت كأنما باغتها جنىٌّ والدخاخنى يتشقق ألما

- هاتوا مُدية حادة

طهرتها، وفصدت، فاستراح

بعدها دبّر لها الحلاق المشرط، والقطن، وأدوات الطهارة..

استعجلها الولد، فدست قدميها فى الشبشب، ورمت بشالها على كتفها وخرجتْ.

(٦)

حمل نفسه على الصبر، لم يعد له سواه وسيلة يتقى بها قسوة الزمان، وهو وحده الذى يوارب له الأمل فى يوم جديد يبزغ فيه الحلم ويتجسد، وتشرق فيه رغبات القلوب الواهنة. وتندفع نسائم الأحلام تطوف وتقترب.. ولعله.. وقتها .. يستطيع أن يغافل الزمن ويقتنص حلمه.

فى اللحظة التى عاد فيها من عمله، وجسمه ينقذف إلى المساكن وُوجه بمشهد يوجع القلب. النسوة اللائى تخففن من ملابسهن يوصدن الباب بأجسامهن، ورءوسهن تطل مزاحمة، وثمة من يهرول فى قلق، وفتاة

تجرى فى يدها علبة من العسل، وفى الأخرى ملعقة تطوح بها..

وقف مدهوشًا، ترمقه الوجوه ولا تقف.

كأن العيون لا تبصره.. أو كأنهن اتفقن أن يتجاهلنه.

لكن الطفلة الصغيرة أبصرتْه فاتجهت نحوه، العينان حمراوان، والدمع يحدد مساره على خديها حتى بدا خيط الدمع واضحًا.

جرتْ إليه، ومسكتْ يده، يحاول فهم الموقف، شدته فأطل عليها وتوجع حين رآها تبكى وينتفض جسدها الصغير، حبيبة ولده وصاحبته التى لا تفارقه إلا ساعات النّوم .. وخفق قلبه، وشعر بخوف يغزوه فاندفع.. لم يسمع رجاءها وهى «تتهته»

- «حوش» عنّه الموت.

وخاض فى الأجساد التى انفسحت قليلا ثم عادت.

شاهد امرأته تنحنى على الولد فى هلع وتوجُّع ووجهها يحمل خوفًا عميقًا وعينها يكاد ينطفىء منها

البريق، والولد الصغير ممدد على الأرض لا حراك فيه.

أدار رأسه باحثا عن جدّ الولد. وتعجب كيف يفوته الأمر ولا يحضر. منْ غيره - فىَ غيبته يواجه الطوارئ ويسعى لحلها - هزه أنين متقطع، وأخجله بصر مشدود نحوه كأنه يعاتبه فانتحى جانبًا ولزم مكانه، تساءل فى تمتمة : لماذا لم تذهبْ به إلى الطبيب؟

علا صوته - وهو فى ركنه المنزوى - وتقدم خطوة، وانحنى.

- لنذهبِ إلى الطبيب أو نستدعيه.

استدارت إليه الوجوه، وتحركت الشفاهُ كأنها تعاتبه. رفعت امرأة رأسها، ومسحت وجهها، وتنسمتْ بطرحتها وقالت.

- أم توحة.. الداية.. على وصول.

بنصف وعيه شاهد المرأة تقتحم الغرفة، وتخترق الجمع فى حدة كنصل سكين، تنحنى على الولد وتعريه من ثوبه، الجسد ناشف كقطعة الخشب، زاحمته رائحة الخل، وزيت الزيتون، أمالته إلى الجنب،

وأرقدته على بطنه، ثم على ظهره، رفعتْ قدميه قليلا، شدت ذراعه، ودعكت أصابعه، وضغطتْ على صدره.. ونطقت فى عجلة : بصلة.

امتدت اليد، ثم أزاحت الأم، ووسعتْ المكان، وطلبت نسمة من الهواء، وهوت على البصلة بقبضة اليد، وقربتها من أنف الولد، زاحمته الرائحة، فعلا صدره وشهق وتلوت رأسه.

لان الجسد، ورمش الولد، فزغردتْ واحدة لدى الباب. دثرتْ المرأة جسد الولد بملاءة ولفته بإحكام.

وتميل المرأة على الولد، وتضعه فى حجرها، وتسند رأسه بذراعها وتطلب عسل النحل والليمون. تشير إلى الفتاة أن تفتح «البرطمان» وأن تقربه، تملأ الملعقة وتقربها قليلا من الفم، تتحرك الشفة قليلا، ثم تنفرج الأسنان وينسل «سرسوب» العسل خيطا موصولاً.. ويتلقاه اللسان فى تمهل وكسل، رفعتْ الملعقة وتركتْ له فرصة ليستريح!

أطلت بعينيها، فشعرت بنظرات امتنان تفيض حولها، مسدت شعره وقالت :

ـ لا علاج يعلو على العسل

وقربت الملعقة من فمها، وسحبت العسل، استحلبته قليلا ثم بلعته

ـ ربنا يقول «يخرج من بطونها شراب مختلف ألوانه فيه شفاء للناس»

غمست الملعقة ونظرت محدقة ثم قالت فى تحسر

ـ العسل كان زمان.. كل حاجة طالها الغش.

وطوفت ببصرها فى أرجاء الغرفة، رمقته منزويا فأهملته واتجهت إلى الأم، نصحتها بألا تقطع العسل من البيت. وأن تطعمه منه ملعقة صغيرة على ريق النوم.. ثم ضحكت وزعقت

ـ لو وضعت عليه حبة البركة لزوجك أراح بالك.

علا وشيش الضحكات وظلت الشفاه منفرجة، والعيون مبتهجة.

●●●

كان مثقلا بالهم ، تغوص عيناه فى سحابات كالأشباح تحوم فى فضاء الغرفة كخيالات الليالى

البعيدة، وتلوح ملامح الذين فارقوا فى ارتعاشة الضوء مبهمة وباهتة.

وتساءل : ما الذى فعله لولده؟

وجاءته الإجابة فى همس مجروش ينبئ عن خيبة: لاشئ وأطل من النافذة، ورنا إلى السماء ودعا: له الله وهومت عيناه بعيدا.. منذ أن كره والده الدنيا ومات مبكرا.. حمله الهم، وناء تحت قسوة الحاجة.. وها هو ينتظر لعل السماء تفتح أبوابها فى لحظات الضعف الإنسانى وهو يبتهل، فتحقق له الرجاء فى مطرح صغير يحميه وأسرته، أو أن يودع الدنيا، ويترك لولده أن يحقق الحلم الذى لا يأتى.

قدمت الأم كوب الليمون المحلى بالعسل، مشفوعا بأمنيات الشفاء وابتهالات رهيفة أن يحفظه الله فى ظل امتناع الرحم عن الحمل، واليأس من إنجاب جديد.

وقربتْ المرأة الكوب من فم الولد.. وراحت تمس شفتيه الناشفتين بالملعقة ثم انزلق الليمون سرسوبا دقيقا حتى سرى الدفء فى الجسد. ظل الولد ساكنا فى حضن المرأة حتى اطمأنت.. وحل صمت غريب لا

تعرفه المساكن إلا قليلا، وترددت الأنفاس فى هدوء منتظم.

أومأت إلى الأم حين لاحظت دخوله فى النوم.

تناولت الكليم القديم وطوته ومهدت له الفراش..

راحت المرأة تقرأ الصمدية، والمعوذتين. كانت تخرج الكلمات من فمها همسا له طقسه الخاص، وضعته على الفراش وسمت بالله الحافظ البارئ، الشافى، المعافى.

مالت إلى الركن الذى يلبد فيه الأب وابتسمت..

- شد حيلك وهات أخ له..

تداخل حتى كاد يختفى، وشعر بحرج حين نكأت الجرح الذى يستعصى على العلاج.

تناولت ورقة من جريدة قديمة وبدأت تقص، وتقطع. كان ما تبقى يماثل عروسة مفرودة الذراعين والساقين، مدفوسة الرأس بين الكتفين.

مسكت المرأة بالأبرة وراحت تطعن الجسم.

تنغرز الإبرة فى قلب العروس، وتردد أعوذ بالله من الجان وشره، وتفقأ العين وتقول.. أعوذ بالرحمن من

عين الإنسان.. وتشك شكة ممطوطة.. وترنو إلى الأب وتضحك.. وهذه من عين الأب الذى يراه ولا يصلى على حضرة النبى، وهذه من عين الأم التى تراه ولا تسمى بالله.. لا يحسد المال إلا أصحابه.. وراحت الإبرة تنغرز فى الجسد فى حركات متوالية تواكب حديثها وأدعيتها.. أعوذ بالرحيم من الشيطان الرجيم.. أعوذ بخالق الكون من النفاثات فى العقد.

كان ذراع المرأة يتمايل وسط الهواء الراكد.. وهى تخرق عين من رأى الولد ولم يصل على الحبيب النبى المصطفى..

●●●

... لم يغير موضعه، ظل قابعًا فى ركنه الذى التزمه، يشاهد أداء المرأة فى ذهول ودهشة، لا يصدق هذا الاهتمام البالغ بمرض الولد.. يدرك أنه الهزال، وأن الغذاء سبب كاف لحدوثه.. فالمسكن يفتقد إلى السلامة والتهوية، وتعلق بصره بالمرأة، وأخذته الإبرة فى اختراقها الجسد الورقى.. وتساءل كأنه يلوم نفسه

- ماذا كانوا يفعلون لو كنا من الأغنياء!

وكاد يضحك هازئًا فوأد الضحكة وزم شفتيه.

وشرد ذهنه وطاف به حتى تجسدت أمامه صورة الطبيب، وأجرة الكشف والسماعة المدلاة، والأصابع التى تدق على الصدر وتجس البطن، وتسطر الأدوية.

أصابته رعدة وتساءل فى رعب كشفته حدة العين.. هل كان من الممكن أن يرى هذه اللمة! ويشعر بكل هذا العطف؟ وابتسم، دارى بسمته حتى لا يلاحظه أحد.. فبعد لحظات قليلة ستقوم خناقات حول دورات المياه، وحنفية الشرب فى الحوش، ونظافة السلالم، والمترصدين للصاعدات، والنازلات، والمتلصصين لمن تستحم حتى فى نصف الليل، ونصبة أم توحة على السطوح...

من يلاحظهن الآن لايعرفهن، والأيادى تمتد كالأشواك، وشعر الرأس يتلوى بين مخالب الأصابع.

وظلت البسمة تائهة حتى صكه صوت المرأة تطالبه بعود كبريت. تلجلج حتى أضحكهن، وأخرج علبة الكبريت.. وراح يهوم من جديد، ويتساءل: أين ذهب جد الولد؟ ولماذا تأخر كل هذا الوقت؟ لو كان حاضرا

لواساه، وآزره.. وهو يعترض على طقوس أم توحة، ثم يستسلم لها.. ويقدم لها البخور ويجزل لها..

أشعلت المرأة العود، وألهبت جسد العروس الذى تمزق، وتقطع ثم تفحم حتى تحولت إلى رماد هش، سحقت المرأة بقايا الجسد، وأخذت الرماد بين أصابعها، ورسمت على جبهة الولد خطين متقاطعين من السواد، ورفعت صوتها داعية.. أنت الشافى يارب، لاشفاء إلا شفاؤك... باسم الله أرقيك والله يشفيك..

ووقفت متصالبة، وذرت بقايا الرماد، وطيرته بنفخة قوية مباغتة فى وجوه الحاضرات...

وهمت أم توحة تستعد، شدت جزعها، ولمت صدرها، واطمأنت على شعرها تحت المنديل، وأخرجت خصلة صغيرة تطل على الجبين... وتسحبت خطوة خطوة، والعيون تتابعها.. ثم أخذهن هرج مفاجئ ورحن يذكرنها بالليالى الجميلة، ويطالبنها بتحديد أمسيات الحضرة، وإخراج الجن، وقراءة الفنجان، وحل المربوط.

وضحكت فى وجوههن، ولاح الود الدافئ يطفر من صوتها...

- جن إيه، بطلوا نكد بس.

وترمقه فى ركنه المنزوى وتقول

- عندكم الشيخ روحوا له..

مضت.. وتركت وراءها رضى ظل يشيعها حتى غابت خطواتها فى الطرقة .. وحل صمت ثقيل لا يقطعه سوى صيحات الأطفال، ونداءات تتعالى من أسفل.

وأخيرًا بعد توتر طال، يستطيع أن يتخفف من الملابس، ويستريح قليلا.. ودون أن ينظر إلى زوجته وضع الفوطة على كتفه واتجه إلى دورة المياه.

وانحنت الأم على الولد، وسمعت تنفسه المنتظم، واطمأنت.

اتجهت إلى الثلاجة الصغيرة.. التى اشتراها لها والدها، وأخرجت لفة اللحمة التى أتى بها زوجها. قبضت على مقبض الحلة وخرجت، طوت الدرج، ودقت الباب.. لم يرد عليها.. كتمت قلقها واستدارت.

لمحها وهو يطأ الدرجة **الأخيرة** من الدرج فنادى عليها.. انتظرت.. حتى **إذا أتاها** دمعت عيناها وارتجف الجسد، أخذها **فى** حضنه ومضيا.

أنبأها أنه علم بما حدث**، وأن** أم توحة طمأنته وأوصته به.

وهل يحتاج الجد إلى **نصيحة**؟ والحفيد أليس أعز الأولاد؟

مسك يدها، وبسط كفها**، ودس** فى يدها ورقة مالية أبت فى وهن لكنه أصر، **وأنبها**.

- الولد يحتاج إلى غذاء.. **وأبوه** أيضا..

نصحتنى بذلك أم توحة

ابتسمت فى حياء، كأنما **تستجديه** أن يكف وقالت

- سننتظرك على العشاء

- سأمر عليكم فى الصباح..

حين تساءلت عن غيبته **أخبرها** بأنه كان يؤدى واجب عزاء.. **وأنه** ظل حتى صلاة العشاء، وأن المكان امتلأ برجال المساكن، **فهم** لا يتجمعون إلا فى

مناسبتين، فرح، أو **موت، واللمة** تشد من أزر الناس وتخفف عنهم.

وقف أمام غرفته **وأخرج** المفتاح وفتح.. مد يده وضغط، فامتلأت بنور **النيون** المبهر.

دعاها للدخول **فاعتذرت،** وتعللت بتجهيز العشاء.

ربت على كتفها **ودعا لها** بالستر وواصل حديثه.

- خففي من قلقك **على** الولد، واهتمي بزوجك.. «سيد» طيب يا مبروكة **ولا** يبخل بشيء لإسعادك. أما الولد فسأصحبه **غدا إلى** المستشفى لأطمئن عليه. وضحك.. وطالبها أن **تضحك** وعلا صوته

- أنا لا أطمئن لطب **أم** توحة.

أشعلت موقد **الغاز،** ورصت قطع اللحم فوق الصينية.. وشقتها **بالسكين،** ودعكتها بالدقيق الأبيض، ثم غسلتها.. حين غلى الماء ألقت باللحم. وقطعت البصل دوائر، **وأضافت** أعوادا من الكرفس.

امتلأت الغرفة **ببخار** اللحم، وحامتْ رائحة الكرفس، فدغدغت **الرغبة،** وأثارت شهية للطعام كانت

غـائبـة. وأطلت من النافـذة، كـان الليل يفـرش عـبـاءته المعتـمة ويطرد ضـوءه، والصمت يتسـرب حثيـثا إلى الأمكنة والنفوس، اخترق سمعها صوته الذى دخل فى حشـرجـة فخـافت أن يرتعب الـولد فى نومتـه الـغـافية، فـمضت مـهرولة ومسـتـه فى كـتـفـه وطلبت أن يعتـدل ويريح رأسه، تمطى واستقام..

أدار رأســـه، وشم الرائحــة، وســـال لعــابه، وأدار معصمه، الساعة تسجل منتصف الليل، وهم ناهضا..

انحنى على الولد، واطمأن.

ورمقها وهى تجهز الطعام..

كان القلق لا يزال قـابضـا على مـلامح الوجـه، وبؤبؤ العـين يروح ويجئ، ولا يقـر لـه قـرار.. ولا يبـرح وجـه الولد وطلتـه البـهـيـة التى تسـعـدها.. خـمس سنوات وجسدها يتـهدم من التعب وأمنيتـها فى حمل جـديد لا تخبو، ولا يطمرها تعب.. لكن البطن تأبى..

والرحم تستعصى على الحمل.

نادته ليأكل.. جلس أمام الطبلية وسمى بالله،

وراحا يأكلان فى صمت.

(٧)

كانت أنفاس الولد الصغير تتتابع فى خفوت ، فارتاح صدر الرجل، واستبشر خيرا، وحمد الله على سلامة الولد، الذى خرج به من الدنيا، قبع فى ركن بعيد من الغرفة، وأشعل سيجارة، لا مفر من أن يفعل ذلك، رغم إدراكه أن الدخان قد يضايق الولد فى نومته، لكن ما باليد حيلة.. فليس أمامه إلا الغرفة.. فهى سكنه، وملاذ رغبته، ومكان استقبال معارفه.. وبابها مخروم، لا تحجب كثيرا ما بداخلها.. ظلت الأم بجانب الولد لا تفارق عيناها وجهه المبتل بالعرق، ولا تفارق حركات الصدر وهو يتنفس فى هدوء وكأنه لم

يكن منذ لحظة تلك القطعة من الخشب الجافة المتصلبة.. وشاع فى الغرفة سكون صامت.

تنبهت إلى أن زوجها قابع فى مكانه لا يبرحه، وأنه صامت.. لا يتحدث، وليس ثمة ما ينبئ عن وجوده إلا الدخان الصاعد من سيجارته التى لا تنطفئ. نهضت فى خفة، ومرقت إلى فتحة الباب وأسدلت الملاءة.. لاصقته فأحست بدبيب القلب يسرى، .. وبهمود غويط يحط على وجهه.. طلب من امرأته أن تعد له كوبا من الشاى،.. شغله هاجسه اليومى، وأمله الذى لا ينطفئ فى أن يعثر يوما على مكان يقيه من عيون الآخرين حتى يطمئن وهو يسكن إلى امرأته، أن أحدا لا يلحظه، ثم يمرق بعيدا كأن شيئا لم يكن... بل.. ومن يضمن أن الأمور تسير فى وضعها الطبيعى.. بل.. من يؤكد أن الشيوع والاختلاط ليس هو الأمر المعقول فى هذه الحالة.. ومن عشرة أعوام مضت..

.. أحس بطعم الشاى لذيذا بالرغم من مرارته، كان يحتسيه فى نشوة كأنه يفتقده من زمان، وكانت عينه تبتسم، ووجه امرأته يحتد وهى تراه متلذذا..

امتدت يده إلى رأسها وأزاح المنديل، فبدا الشعر ململوما، ثم سرعان ما انهل كسبائط الصفصاف، فتعجب من جماله وسيولته.. رغم ندرة المياه وشحتها..

كانت عيناه تناجيانها ففطنتْ لملامسة الإشارة، وأسرعت هامسة.

ـ ليس وقته، القدم لاتزال تدب، والعيون مفتوحة.

تنهد فى ألم لم يخف عليها

ـ متى يشعر المرء بالراحة فى بيته؟

همستْ وهى تربت بكفها على فخذه ـ

ـ لم يبق إلا القليل.

سحق السيجارة بأرض الغرفة فى حدة خافتة.

ـ كل يوم نصبّر أنفسنا.

ـ هل هناك غيره.

ـ الموت.

خرجت الكلمة من فمه مدممة باردة، فأسرعت تطيب خاطره

- إننى أظلمك معى

لاصقتْه ،وواجهتْه، ومدتْ ذراعيها تحتضنه.

- نحن أفضل من غيرنا بكثير

كان الثوب ينحسر عن قصد، وكانت الأصابع ترتعش فى رغبة.

- غداً سيكون، أفضل من اليوم.

وضحكت عيناه. كثيراً ما كانت تفضحه عيناه وتكشف ودمدمات الداخل سخونة الدم.

كانت السيجارة تتوهج، تطرد ظلمة الغرفة، وتلمع كالشهاب..... ضغطها بذراعه وقال متمتما.

-.. ولم لا.. قد يكون الغد أفضل.. ثلاثة آلاف وستمائة وخمسين يوما.. وأنت تقولين غداً سيكون أفضل.. من يدرى.. ربما يكون الغد أفضل..

وضحك، فتداخلت تحت ضغطته وارتخت أصابعها..

- غداً .. ستفتح الدنيا كنوزها لنا..

ابتسمت وصوتها يعلو فى حذر

- لا تنسنى وأنت تغْرف من الكنز.

- أنسى عمرى!

ومد كفيه وأحاط الوجه، كان وجه امرأته كقمر الليل المعتم، تهدّجتْ أنفاسها، وأوشكتْ أن تبكى..

- سأشترى لك ملابس لم تلبسها امرأة، تتمخطرين بها فى الشوارع، أما فى الليل فسيكون ثوبك أرق من النسيم.

ضحكت المرأة زاعقة حتى كاد الولد يجفل، وأمالت رأسها، وحسرت الثوب عن صدرها، وعرت معصمها .. وقالت.

- أتكسونى وتبقى رقبتى عريانة.

- لم أغفل ذلك أبدا..

مشت أصابعه على الرقبة، والصدر، والمعصم..

- سآخذك إلى أكبر محل يبيع المجوهرات، سأشترى لك كردانًا من الذهب الخالص، وخلخالاً، وغوايش كهيئة الثعبان.. وحلقانا على هيئة القلوب.

جاءتها الرعشة راغمة، فازدادت التصاقا به

- لا تطر بى بعيداً!

اتخذ وجهه هيئة الجد وصاح خافتا..

- ذكرتنى.. سأشترى لك جناحين تطيرين بهما.. مادمنا سنغرف من الكنز.

- ولكنك نسيت شيئًا..

- لم أنسه.. سيكون فراشك من القطن المجنى لتوه من الحقل.

وستنامين على سرير بعمدان مصنوعة من النحاس الخالص، فأنا أكره الأسرة الخشبية.. وسيكون السرير عاليا حتى أرفعك كلما تنامين عليه..

وللحظة هاربة من سكون الغرفة وظلمتها، وتوهج السيجارة، وانطفاءتها.. مدت ساقها ورفعتها.. وتتمتمت فى خفة..

- الأفضل أن أقفز بنفسى، فسأكون ثقيلة عليك..

- دائما أنت خفيفة ورشيقة

- لا تبكنى

- بل أضحكى وافرحي..

ضحكت، وتدللت، ثم همست.

- ومن أين تأتى بالقوة :

- اللحوم ستشد العضل، والفراخ البلدى ستقوى العصب والفاكهة الطازجة كفيلة بمد الجسم بطاقة هائلة على الفعل..

فغرت فاها، فبدت فى عينه وجها رائقامُسْتحبا.

- اللحوم والفراخ والفاكهة!!

- الخروف كاملاً من أجل خاطرك.

- وهل الحلة تسعه؟؟

أدرك السخرية فلم يحفل وتابع قوله..

- قولى الثلاجة .. لا.. لا.. بل الفريزر، ألم تسمعى عن الفريزر.. لن تنقطع اللحوم عن بيتنا العامر..

- هذا كله غداً!!!

أجابها بثقة تامة

- نعم غداً

- ولكنك نسيت شيئا مهما

- غير كل الذى ة ته :

- نعم .. أين سنضع ذلك كله.. فى الغرفة!!

صمت قليلا وأخذ يردد .. أين سنضع ذلك.. كله.. ذلك.. كله.. وفجأة بهرها بقوله حين ألقى عليها مفاجأة لم تتوقعها..

- هذا أمر سهل.. فغداً سيقوم الرجل الأول ذو القلب الكبير بتوزيع الشقق على المحتاجين وسكان الإيواء..

نسيتْ نفسها، وخبطتْ على صدرها فى فرحة غامرة..

- صحيح!!

- نعم صحيح.. فهم يبنون فى كل عام ١٠٠ ألف شقة، ونحن هنا من عشر سنوات..

أسرعت قائلة فى حزن - عشر سنوات وأربعة أشهر وعشرة أيام..

- اضربى ١٠ سنوات فى ١٠٠ ألف شقة، وسيكون الناتج مليون شقة بالإضافة إلى شقق مبنية ومقفولة، وإلى شقق مفروشة، استولى عليها الرجل ذو القلب

الكبيـر من أصـحـابهـا لصـالـح الغـلابة.. سـيكون لنا نصيب إن شاء الله..

- أصحيح ما تقول؟

- أعهدت علىّ الكذب يوما؟

- ما عهدتك إلا صادقا.. وهذا ما يحببنى فيك.

اتخذ هيئة الجد، واتسمت ملامحه بالجهامة فجأة..

- أرجو ألا تخبرى أحدًا بذلك.

- هل تعودت منى أن أفشى لك سرا؟

- أنت كتومة حتى فى مشاعرك..

وكانت قد ذابت وهجًا تحت ذراعه فهمس

- لنسـتـقـبل الغـد بما يليق بـه. علينا أن نسـتـعـد لـه. تـهامست متسائلة:

- كيف؟

- تفعلى هكذا..

وشدها إليه.. تململت وهى تتداخل فى حضنه..

- الفجر يؤذن.. وغدًا عندك عمل..

- بل.. غداً تفتح الدنيا كنوزها لنا.. وستحصلين على شقة.. ومفروشة أيضا..

وذابت المشاعر تحت لفح الأنفاس، وسكون الغرفة، وصمْت الولد.

(٨)

كان الصباح نديا، وهو يمد يده إلى الملاءة يزيحها عن باب الغرفة، قبل أن يمضى لمح زوجته تتمطى على الحصير، وعيناها تضحكان له.. كان فى العين بصيص امتنان، فما أحلى أن ينام الإنسان على وسادة من الأحلام.. والدفء يحيطه من كل جانب، وكان الولد يحرك عينيه، فى بطء وتثاقل.. وتمنى أن تدوم أيامه والصبر يلازمه حتى يأتى الله بالفرج.. وتتعدل الأحوال..

مضى إلى الممر الضيق الطويل الذى يفصل بين جانبى المسكن .. وانحنى إلى الدرج .. وعند باب

المسكن فوجئ بطابور من السكان يقفون وفى أيديهم أطفالهم .. تعجب مما رأى.. تصور للحظة أنه فى مكان غير المسكن الذى يأوى فيه.. فما رأى ساكنى البيت.. متجمعين مثلما رأى الآن.. حاول أن يتجنب الطابور ويمضى.. فهو وإن كان يحيا معهم إلا أنه يعيش فى حاله، وعلى هامش حياتهم.. فالنهار بطوله يعمل بالخارج.. والليل لا يسعفه للتعرف بأحد، إلا إذا جاء صدفة..

أطل بعينيه إلى الجمع.. فشاهد أم توحة الطيبة التى رقت ولده أمس.. الأمر جدّ إذن. ثمة شىء حدث بل قد يكون الأمر جللا.. ربما أصاب المسكن شىء أو حل مكروه بالبيوت المتطرفة، فمن عادة أم توحة الطيبة ألا تترك موقفا يحتاج إلى مساعدة إلا وأسرعت إليه .. ولكن ذلك التجمع كله وفى هذه الساعة الباكرة.. مريب ويبعث على الغرابة.

بادر إلى المرأة الطيبة يسألها ويتعجب مما يرى، مسكت المرأة بيده وضغطت عليها برقة، كانت الأصابع تندس فى راحة اليد لامسة، وراجية، وكأنما توحى

باللمس ما تعجز عنه بالقول.. همَّ أن يفتح فمه ليتحدث ولكنها ضغطت كفه بشدة وابتسمت وظلت مبقية على بسمتها، نظر إلى الطابور - فوجد الناس يحتفظون بنفس البسمة عالقة على الوجوه المتعبة والملامح الباهتة.. أمضّه قلق مفاجئ فنزع يده بقوة من يد المرأة وصاح.

- ماذا أرى؟

ولم يلتفت الناس إليه.. ظلوا وأطفالهم ينظرون إلى المرأة ويبتسمون.

وظلت المرأة الطيبة تنظر إلى الرجل وتبتس. تعجب من تلك البسمة المنتشرة على الوجوه، وهو ما رآهم إلا عابسين.. تودد إلى المرأة. لا مفر من التودد إليها وقد رقتْ ولده، وأسعفته من مرض مفاجئ..

- هل حدث شيء..!

نظرت إليه المرأة فى إمعان، ولأول مرة تمتعض فى وجهه.. أدهشه تغضّن الوجه، وجهامة النظرة، فخشى على نفسه منها، ومن تعاويذها، وعاود التودد، وحمل الصوت تهدُجا.

- يا خـالة.. إنكم تنظرون إلى وتبـتـسـمـون، هل تضحكون منى؟

ربتت على صـدره فى حنان، وألفة كطبيعتها حين تكون رائقة المزاج.

- نحن لا نضحك منك.. نحن نفرح معك.

أغاظه القول فاحتد فى حذر معاتب.

- تفرحون معى..! .. يا خالة.. هل من يعيش عيشتنا يفرح!!

لاح الغـضب فى العـين، وزامت الوجـوه لغـضب المرأة.. وطوحت بيدها، وفردت أصابعها الخمسة فى وجهه وقالت وهى تحرص ألا تغضبه..

- نحن عشنا معا عشر سنوات على الحلوة والمرة.. أتحب أن تستأثر لنفسك بالحلوة.. وتتركنا.

أطل الولد، وجـاءت الزوجـة.. وجـرتْ إليـه المرأة تحتـضنه، حـملتْه على صـدرها ومـضتْ به إليـه وهى تتمتم فرحة.

- هذا ابنى.. لى فيه أكثر ممَّالك..

قال وهو حائر بين الناس لا يدرى ما يفعل.

- أنت الخير والبركة..

قالت فى حَسْم لا تراجع فيه.

- إذن خذْنا معك،

- هل تقوين على شغل البناء يا خالة.

رفعت المرأة الطيبة صوتها فى ميوعة مباغتة، ونحت الولدجانبا فى حدة ..

- بناء!! إننا نعرف أين تذهب..؟

- جـرت الأم إلى ابنهـا، ولا صـقـتْه، زام الجـمع، ومصمصت النساء الشفاة... ورمقن الأم فى غلّ..

قالت المرأة. تؤنّبه.

- أنت لاتريد لنا الخير..

- وهل أملكه وتأخرت يا خالة..

- لاتتمسكَنْ يا سيد.. إننى سمعت بأذنى وأنا أقوم لصلاة الفجر.. أنهم سيوزعون مليون شقة هذا اليوم خذنا معك.. دلّنا على الطريق..

صاحت النسوة وأيديهم تقبض على أكف الصغار

- دلنا على الطريق .. واتركنا.. من أجل الأطفال..
تواصلت عينا الرجل وزوجته، واتسعتا، وكادت الدهشة تلف الجمع كله... أدرك أن المرأة سمعت كل شىء. وصلتها الأحلام التى طافت به ليلا..

حاول أن يفهمها أن الأمر لايعدو حلما فاض به إلى زوجته فى لحظة اختلاء نادرة، ولكن المرأة رفضت وأصرت على أن تمضى معه.. وصاحت فى غضب شديد وهى تلوح بقبضتها فى وجهه

- لابد أن تأخذنا جميعا إلى الرجل المسئول الذى سيوزع المليون شقة على الغلابة.

وبكت المرأة الطيبة، كان بكاؤها صادقا ومؤثرًا، وكان صوتها المتهدج الذى يشرق بالدموع كافيا لأن يلوى قلبه ويستحوذ على مشاعره..

- خذنا معك. لا أحد أغلب منا.. لقد صبرنا طويلا.. خذنا معك ولا تتخلّ عنا..

أحاطت به النسوة من كل جانب. وتناهى إلى سمعه الرجاء تلو الرجاء.. نظر إلى زوجته، فرأى فى العينين

رجـاء لا يقل عن رجـاء النسْوة، فـتـعـجب منـهـا وأدار بصره مندهشا، ومتأملا..

.. واخترق الجمع صـوت له حدة ممطوطة ورفيعـة، كـان لـه تأثيـر مـبـاغت فـولج إلـى النفـوس وأرعبـهـا. وتسـاءلوا : لمن هذا الصـوت الذى لم يألفوه من قـبل.. واستقبلت جنبات المكان نبرات الصـوت الزاعق حتى وصل إلى الحـوش الخـارجى وشـملتـهـم قـشـعـريرة موصولة، وتعجبوا أن يكون تأثير الصوت له مثل هذا النفـاذ، حـتى خـشـوا أن يكون صـادرًا من شـخص ممسوس من الجن.

تطلـع سـيـد فـى المكان وأدار رأسـه فى الطوابق العليا، ولم يبصر أحدا وتمتم خفية : أيكون الشيخ؟

ولاذ بصمتـه، فـهو وحده - دون غيـره من الرجـال - الذى تغـيب. الآخـرون لهم أعـذارهم، يغـيـبـون كـثيـرًا لأعمالهم البعيدة لكن ما عذره هو!

وأطلت التـمـتـمـات على الشـفـاه.. أيكون هو الشـيخ لكنهم يدركون أنه لو كان مـوجـودًا لكان سبـقـهم.. هل اتفق مع زوج ابنته، أن يسبقهما، ويمهد الطريق لهما؟

فـهـو على كل حـال يعـرف منْ يعـرف الطريق إلى الكبار.

صـوته مـعلوم لديهم، لايخطئـونه أبدا.. والصـوت الذى يصلهم مغاير.. صوت يقترب من الصرخة التى تنبئ بالالتيـاع والوجع.. ومبـروكة فى مكانهـا القريب من رأس الطابور راحت تلوم نفـسـهـا .. كيف لم تدْعُ أباها الشيخ؟ ولماذا لمْ يحضر ليطمئن على الولد كما وَعد.. عللتْ الأمر بالوقت المبكر، والموقف الذى فاجأهم بلا ترتيب أو توقع، وأنبتْ فى نفـسـهـا أم توحـة التى تجاهلتْ أباها، ولم تخبره كما فعلت مع غيره.. لوت رأسها واحتجت

ـ : ليس من حقها أن تمنعه من الحلم، وتحرمه من حقه المشروع..

وأطل عليـهم فى هرولة مـحسـوبة، فى يده المبـخرة، يتـصاعد منها بخور الجاوى والمستكة، ويطير بيده الأخرى سحابات البخور، ويرمى فى الجمرة المشتعلة بحبات الملح التى تحدث فرقعة رفيعة كالدوىّ.

سكنوا لحظة، ثم هللو لمرآه.

تعجبت أم توحة من البنت التى أهملت أباها ولم تخبره، وضنتْ عليه ولامت نفسها حين اتهمته بأنه خانهم وسبقهم.

واقترب منهم، تزاحمهم الرائحة، وتطوف بالرءوس سحابات البخور الشهباء.

ارتكنوا إلى صمتهم وترقبوا

- خيبْتم ظنى فيكم

وراح طائر الصمت يرفرف على الرءوس ويخيط الشفاه، ومضى - هو - ينظر فى إمعان إلى الوجوه، ويتملى وجه الابنة الباهت وولدها اللابد فى حضنها

- تؤثرون أنفسكم بالمغنم..

وتحملوننى مغارمكم

قبضت الرهبة على الوجوه، فلازال الصوت بعيدًا عن صوته، كأن أحدًا غريبا ولجه، وناب عنه فى الحديث واندهش سيد مما يقول وهاجس نفسه : - أيعرف شيئًا نجهله

وتفرس الشيخ فى الوجوه حتى إذا وصل إلى أم توحة، تملّى عينيها الغائبتين وقال عاتبا

- حتى أنت..

اهتزتْ قليلا ثم قالت فى دهشة

- من كان يتصور أنك لاتعرف

- لم يعد لى قيمة لديكم

أنا منْ فتحت لكم قلبى وبيتى

ابتسمت على استحياء

- اليوم يكون بيتك كبيوت الكبار

- أمعن التحديق وعلا صوته بعتاب حقيقى

- غرفتى تسعكم جميعا

أبعدتْ وجهها ورنت إلى سيد، ومبروكة، علهما ينهيان الموقف الذى يؤدى، إلى التأخير، فيسبقهم غيرهم ليقبضوا على الحلم..

- كشف الله لى خدعتكم، حمل إلى الصالحون وجهتكم ومساركم

همست أم توحة لسيد : ـ

ـ الخبر ذهب بعقله

وجدته أمامها وجفنه يفارق عينه

ـ وصمتم أنفسكم بالجحود.. وأولكم ابنتى وزوجها

أشارت امرأة فى مقدمة الطابور إلى الجميع وصاحت

ـ هذا الرجل سيعوقنا

وصاحت فى قوة

ـ شاركنا فى المسيرة حتى ندرك الحلم قبل أن يفلت منا.

واندفع فى قوة، وارتضى أن يصاحبهم، وأغدق البخور الذى راح يصاحبهم فى غيماته المترعة.

كانت الوجوه مبللة بالدموع، والعيون محمرة الجفون، والأطفال يبكون لبكاء الأمهات..، وبدا له الموقف غريبا.. وللحظة خاطفة، ووسط التوسلات.. شعر بذاته، وبأنه لايقل أهمية ـ بالنسبة لهم ـ عن الرجل الكبير المهم الذى وعد الغلابة بالسكن المريح ـ

وأن عدد الشقق على مدى عشر سنوات لا يقل فى الحقيقة عن مليون.. وأنه يكفى ويفيض، وأنهم صبروا بما فيه الكفاية.. وأن الآوان أن يقطفوا ثمرة صبرهم.. وما أجمل أن يسكن فى مسكن له باب يحمى أسراره ولا يجرح مشاعره أحد.

رفع رأسه عاليًا، رأى الجمع ساكنًا يتعلق بنظرة منه .. نادى على زوجته فى ثقة.

- احملى الولد واتبعينى .. ولا تنسى أباك.

زغردتْ المرأة الطيبة.. وزغردتْ النساء.. فرحات.. أفسح الجمع الطريق له.. وخطا بقدمه خطوة واثقة وصاح..

- هيا على بركة الله..

ومضت الأقدام وراءه تدق الأرض فى تعجل.. والعيون تتعلق بأمل ينشب فى قلوبهم مخالب الفرح.

(٩)

مضى الطابور فى طريقه زاحفا إلى أمله المحجوب بآلاف الأيام من الصبر والمعاناة .. وطوى الناس فى مسيرتهم حفرهم، وبركهم، ومساكنهم، .. تركوا كل شىء، .. الملابس المنشورة على الحبال، والدجاج الرامح فى الخلاء، والماعز الذى يتقافز فى التلال... ويناطح الصخر.. رأوا عربة الكارو المحملة بالمياه ولم يهتموا وقدر الفول التى تنتظر الشراء، بقيت ساكنة ملتهبة.. والأرغفة الداكنة مرصوصة فى انتظار أن تمتد إليها الأيدى تتخاطفها .. أخذوا معهم ضجة الحياة، وخلفوا سكونا يرعش الأبدان..

حين أطل الجمع على المقهى التابع على أطراف المكان، فرحت صاحبة المقهى، وحدست أن صباحًا يوحى بالرزق يمشى إليها.. نادت على الصبى وألقت عليه أوامرها.. الماء المغلى، والشاى الحبر، والحلبة الحصى، واللبن البائت، والمعسل المنقوع.. والفول النابت.. وأطباق الحلبة الخضراء.. وكان صوت الصبى يجلجل سعادة، وهو يردد... «جاهز.. جاهز ياست الكل...»

ولكن ست الكل كاد يذهب عقلها وهى ترى ناس الإيواء يمرون بها دون أن يدخل المقهى أحد ممن تعودت رؤيته كل صباح، أكلها قلبها وأيقنت أن وراء اللمة أمرًا خطيرًا، يجعلهم لا يأبهون بها، أو يلقون التحية التى تعودتها منهم صغاراً وكبارًا.

جذبت ذراع امرأة وأخرجتها من الطابور غَصبًا.. والمرأة تجاهد أن تفلت ذراعها، حتى كادا يشتبكان..

- لن أتركك مالم تخبرينى بالأمر..

- تعالى معى وسأخبرك -

قولى أولاً..

- يقولون أنهم سيوزعون اليوم شققا على ساكنى الإيواء..

- يا أولاد الكلب.. ولا تخبروننى..

ورمحت وراء الطابور واندست فيه، وعقلها يطوف بها فى أرجاء الشقة التى ستحصل عليها...

وصل الطابور إلى مشارف المدق الترابى، فمالوا يمينا وساروا إزاء شاطئ ترعة، غار الماء فيها، وضاق اتساعها بفعل أكوام التراب، وهدم البيوت.... كانوا يقطعون الطريق إلى قلب المدينة فى الاتجاه الشرقى... وكان لايزال المدق الترابى يئن تحت خطواتهم المتعجلة..

لاصقت المرأة الطيبة، الرجل الذى يقودهم وقالت وهى تكاد تلهث

- كان يجب أن نؤجر عربات كارو.. فالطريق طويل..

- وكيف تحسين باللذة،وأنت تسيرين إلى الشقة راكبة،

- أمسكت بكم جلبابه تلاحقه، وهى تستقطر شجاعتها وقوتها الكامنه..

ـ لو نرفع راية.. تدل علينا..

صاح فى غضب وهو يجذب كم جلبابه..

ـ لا تتحدثى بذلك.. وإلا ظنونا مظاهرة..

التزمت الصمت..

ومضى الركب زاحفًا على الأقدام ، كى يحسوا بحلاوة الثمرة وهم يقطفونها بعد عناء، كم هو لذيذ ذلك الطعم الذى يستحلبونه بعقولهم وهم يمضون قدما دون مبالاة بشىء.. وهاهو يسيل على الأشداق عرقا وشمس الصباح تطل عليهم فى رجفة مصفرة.

وصلوا إلى الشارع العريض المرصوف، واخترقوه فرحين سعداء.. تركوا بطن الشارع للسيارات، ومضوا إلى الرصيف..

لم يخل الأمر من دهشة وغرابة. كان الناس يقتربون منهم ويتعجبون.. وتبطئ السيارات وتطل الوجوه ضاحكة،

لاحتْ السّحنات مشدودة، والأطفال يبكون من وجع الأقدام، والنسوة يطوحن بالطرح السوداء، والرجال ـ من الأمام والخلف ـ يبدون كالرعاة يحرسون القطيع..

والمرأة الطيبة تتبع الرجل مباشرة، خطوة خطوة، وهو يمضى رافع الرأس يمسك ذيل قميصه بيده، وعروق الساق مشدودة وتنتفض، والرجل يدب فى قوة، يخترق بهم الأماكن يمينا وشمالاً، والمرأة تدفع به، وتحرك بأشارة منها الوجوه المتعبة والأجساد الموجوعة.

كان المشهد يثير الدهشة، ويدعو إلى التأمل، فجرى بعض المشاهدين وحازوا المرأة، ساروا بجانبها وصاحوا.. وهى صامتة مندفعة، أشاروا بأيديهم .. وهى صامتة مندفعة، هللوا بكل حناجرهم.. وهى صامتة مندفعة.. اقتحم واحد منهم الطريق فنحاه الرجل بعيداً.. وكاد يسْقط .. غاص قلبها، وهى لا تبغى إلا الخير.. حرك القلب اللسان فصاحت فى قوة وثقة..

- انضموا، فاليوم موعد العطاء والخير..

تداخل البعض فى الطابور، وسار البعض على أطرافه.. جاءها صوت من الأطراف يسأل.

- إلى أين يا أم..؟

رفعت يدها عاليا وفردت كفها ونادت..

- هلموا...فالسماء تنفتح أبوابها اليوم..

جلجلت ضحكة مستهزئة خرقت سمعها..

- السماء أغلقت أبوابها.. يا امرأة..

- صاح آخر وهو يقهقه محذرًا

- خذوا بالكم من جيوبكم، فوالله فى الأمر حيلة.
زغدها الرجل وهو يمضى مندفعًا..

- ألم أقل لك أن تكفى عن الحديث..

- ما تعودت أن أكتم الخير عن أحد.

وصاحت بأعلى صوتها تخرق الفراغ الهادر

- أيها القوم.. بعد عشر سنوات كوامل سنحصل على الشقة.. اليوم سيوزع الرجل الكبير ذو القلب الطيب مليون شقة، سيوزعها على الغلابة.. سيوزعها على المساكين.. وهرع القوم وتداخلوا..

•••

فى البدء كانت السيارات تمرق كالسهام، ولكن المسيرة تمددت على الرصيف حتى شغلته كله..

وامتدت حتى طالت الوسط وتفرعت، أجبرت الناس على البطء.. ترك السائقون سياراتهم وانضموا إلى المسيرة.. وتدافعت الأقدام وثار الغبار.. فالرصيف رمل وتراب وطين.. وانعقد الغبار سحابة معتمة اللون قبضت على الأنفاس والصدور لكنها ممتلئة بأحلام تستكن فى عيون القوم، تنظر إلى السماء لعلها تعْطى للسحابة المعتمة ماءها فتنهل خيراً يكفى الناس ويزيد.

١٠

وصل الطابور الطويل إلى مشارف النيل.. لم يبق إلا أن يعبروا الجسر الذى يربط بين البر الغربى والبر الشرقى.. حيث قلب المدينة.. ويا لفرحة الرجل الكبير صاحب القلب الطيب، وهو يرى جموعه زاحفة إليه.. على الأقدام.. تمد إليه اليد مبسوطة على اتساعها ليقدم لها مفتاح السعادة.. إنه يومه الذى يحقق فيه وعده فلقد آزروه، وصدقوه، وصبروا معه طويلا.. وآن لهم أن يستريحوا ويحصدوا ثمرة الصبر الطويل.

وقف الرجل على صدر الطابور فتوقفوا جميعا.. ناشدوه ألا يتباطأ حتى لا يظهر عليه التعب ويعجزوا

عن الوصول.. ولكن الرجل ظل مكانه واقفا كأنما شدت قدماه بوثاق متين.. حاول البعض أن يصل إليه ليعرف لم توقف؟ لكن المرأة الطيبة منعتهم ... وصاحت فيهم فى حسم.

- هو الرجل.. ولا رجل غيره، هو الذى باح بالسّر وهو الأمين عليه.

والرجل فى صدر الطابور لايسمع أحدًا، ولا ينتبه إلى صوت.. كانت عيناه مصوبتين إلى الجسر، وكان الجسر فى هوة سحيقة، لم يبق منه إلا قوائم مدببه صرخ فى حدة ارتعبت لها قلوب الناس.

- أين الجسر.

صعد على نتوء صخرى، والغضب يلون صوته،.. أشار إلى الجمع وهدر..

- أيها القوم.. لقد انهار الجسر..

خرج من الطابور صوت مدو

- إنها مكيدة مدبرة..

شقت المرأة ثوبها حتى بان الصدر وصاحت..

- ولو.. هيا إلى الجسر الآخر

وأخـذ الجـمع طريق النهـر الطويل فى اتجـاه الشمال..

كانت الأشجار تتداخل بفعل حركة الجمع، وكانت مياه النهر لابدة.. ساكنة، وكأنما أصابه ذعر مفاجئ..

أخذ الرجل يحدث نفسه، والمباغتة تحتويه وتنفضه.

- أيكون الأعداء قد دبروا لنا مكيدة.

سمعته المرأة فلاحقته

- وهل للغلابة أعداء..!

قبض بيده على أصابعها.. وبيده الأخرى لملم مزق الثوب عند الصدر

- احجبى صدرك عن العيون.. لازال فينا حياء.. ضحكت فضاعت الضحكة وسط الضجة..

- ضاع الحياء فى بيوت الإيواء..

مدت رأسها نحوه، وهى تلهث، والعرق ينحدر إلى صدغيها وإلى جلد الرقبة..

- ألنا أعداء..!

قبض على يدها وهو يمضى بها فى اتجاه الشمال..

- الرجل الكبير استولى على عمارات بأكملها، وعلى المساكن المفروشة.. ليوزعها ضمن ما سيوزعه من مساكن على الغلابة..!

وتنهد الرجل.. وخرجت التنهيدة حارقة كاوية.

- أصابهم فى الصميم..

ضربت بيدها على صدرها وصاحت

- لقد فعلوها إذن

لكزت بيدها الغضبى صدر الرجل، فكاد ينطرح.. أشارت إلى الجمع أن يمضى.. فالطريق إلى قلب الرجل الطيب مفروش بالنيات السيئة..

وسدّت الهرولة مسامع الناس، وحجبتْ الأقدام منافذ الطرق.. حتى وصلوا أخيرًا إلى الجسر الثانى.. وهالهم ما رأوا..

كان الجسد الطويل العريض الفخم طللا باليا إلا من أسياخ الحديد المزروعة فى عواميد الأسمنت

المنكفئة. يلطمها موج النهر.. تقف المرأة المصرية فى زيّها القروى وهى تضع يدها على رأس الأسد.. غلت الدماء فى العروق المرهقة.

قفز الرجل على سورٍ عالٍ، ونظر إلى الجمع.. كان الطابور طويلا، لم يدرك نهايته.. رأى الوجوه مصفرة، وعيون الأطفال مذبوحة.. ووجوه النسوة مدممة.. وفى عيون الرجال لمح بريقًا لا يقوى العناء على طمسه..

.. صرخ فى الجموع

- أيها القوم.. إن الأعداء يتربصُون بنا.

هلل القوم وهدروا فى صوت واحد

- الموت للأعداء..

مدَّعنقه، وزعق بقدر ما تواتيه حنجرته.

- لقاؤنا عند الجسر الأخير.. بجانب الفندق ذى النجوم الخمسة..

... بدا الشارع ضيقا ومحصورًا بين ضفة النهر الغربية والبنايات العالية على اليسار.. لم يتسع الرصيف لحركة الأقدام وتدافع الأجساد، فنزل الجمع

إلى بطن الشارع.. الجموع تحتشد، وتتواصل، وتتدافع.. لم يهتم أحد بمن يسقط، فلابد من ضحايا وهم يزحفون إلى الأمل الكبير.. ومن بشر يتساقطون وهم يواجهون الأعداء.. الذين ينسفون الطريق إلى قلب الرجل الكبير، ليئدوا حلمهم العظيم!!..

(١١)

هذه المرة كان الأمر كالصاعقة، فلم يرد على الخاطر وهم يمضون إلى البر الشرقى حيث قلب المدينة، وقلب الرجل الكبير.. أن تتهدم فجأة الجسور المقامة على ضفتى النهر.. وكأن شهابًا من السماء ترصدها.. لم يحتج الأمر إلى تفكير طويل.. فالمكيدة قد دبرت وانتهى الأمر، والجسر الضيق الصغير قد تهدم هو الآخر، وحديده غائص فى النهر، تبدو أطرافه المدببة كأشرعة الغرقى، على حين بدت الصور فى الميدان علامات على الموت الطويل!!

.. لم يقو الرجل على كتمان حزنه وألمه.. كانت عيونه تدمع.. ولأول مرة رأى الجمع دمعه يسيل من

عينيه كنافورة النهر المعطلة.. صاح فيه الجمع بصوت هادر

- الموت للأعداء.

اعتلى السور المدبب وواجههم فى حزن..

- أيها القوم.. ليس أمامنا إلا أن نجتاز النهر..

وحط صمت ثقيل له وخز الإبر وحد السكين.

- ولكن النهر عميق..

ردد فى صوت محمل بألم آلاف الأيام التى قضاها فى مسكن الإيواء..

- ليس أعمق من مأساتنا.

صكت المرأة الطيبة وجهها فى عنف

- أتظنون أنفسكم أحياء..

وبكت المرأة، وشهقت فى حزن..

- حياتكم أكثر هولاً من اجتياز النهر..

أثارته المرأة، فتمددت ملامحه، وتغضن وجهه واستطالت عنقه، وراح لسانه يردد فى صخب عالٍ..

ـ لتكن أجسادنا الجسر الذى نعبر عليه..

ليمسك كل رجل يد امرأته.. ولتضع كل أم وليدها على كتفها، ورضيعها على صدرها..

والفتى يقبض على وجه فتاته..

إننا ذاهبون إلى عرس الأمل.. هيا بنا.. هيا إلى عرس الأمل.

وبدأ الرجل خطوته الأولى.. غاصت القدم فى النهر.. والمرأة بجانبه تدفعه فيتدافع.. كانت يده مرفوعة.. وظلت يده مرفوعة وهو يغوص فى مياه النهر حتى اختفت أطراف الأصابع.. وتدافع الجمع..........

للوصول إلى الشاطىء الآخر، حيث ينتظرهم الرجل الكبير ذو القلب الطيب.

مطابع
الهيئة المصرية العامة للكتاب

رقم الإيداع بدار الكتب ٤٥١٣ / ٢٢٠٠١

I.S.B.N 977 - 01 - 7183 - 2